سيميائية اللغة والاتصال وأبعاد المعنى

دراسة تطبيقية على الحديث النبوي

د . محروس محمد إبراهيم
مدرس العلوم اللغوية
كلية الآداب ببني سويف

توطئة :

لعله من حسن المبتدأ أن تأتي بين يدي الدراسة توطئة ببيان موضوعها وتوضيح ما تفردت به عن الدراسات السابقة – في أهدافها ومنهجها وطريقة معالجتها وتطبيقاتها ومن ثم في نتائجها .

فمن أهداف هذه الدراسة أن تُعيد النظر في كون اللغة " أصواتًا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "([1])، أو في كونها فحسب عمليةً صوتية لسانية لفظية يعبر بها المتكلم عن قصوده؛ لأن من ينظر إلى واقع اللغة المتجلي في عملية الكلام والاتصال اللغوي بين الإنسان وأخيه الإنسان، لا محالة يجد أنها عملية ينفعل لها سائر أعضاء جسم الإنسان وملكاته الجسدية والنفسية والذهنية، وتندمج فيها العناصر اللفظية (من كلمات وجمل وأساليب) وغير اللفظية (من إشارات الجسم وألحاظه وهيئاته) – في بنية لغوية واحدة متماسكة ومتمازجة، بحيث تتعانق فيها ألفاظها وألحاظها في تحقيق دلالاتها والإبانة عن أغراض المتكلم وقصوده وإقامة الاتصال مع المتلقى أو المخاطب بإخباره أو إقناعه أو التأثير فيه شعوريًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.

وبعبارة أخرى فإن هذه الدراسة تهدف على نحو ما يتجلى من عنوانها – إلى استكناه ظاهرتي: اللغة والاتصال الإنساني، والكشف عن بنية كل منهما والعناصر الفاعلة فيهما؛ إذ تعمل الدراسة على إثبات فرضية أن كلا منهما توصف بالسيميائية إلى جانب كونها توصف باللفظية؛ وذلك لما تعتمد عليه كل ظاهرة في الواقع والاستعمال من الألحاظ والإشارات والحركات الجسدية والهيئات الجسمية في الوقت

([1]) – ابن جني ، الخصائص، تحقيق محمد على النجار، عالم الكتب، بيروت،٣٣/١ .

الذي تعتمد فيه على العناصر اللفظية والتنغيمات الصوتية، وهذا ما افتقدنا مقاربته صراحةً في الدراسات السابقة .

فبعض الدراسات السابقة التي درست الاتصال غير اللفظي أفاضت في ذكر مفردات هذا الاتصال من إشارات وحركات وأصوات غير كلامية وهيئات جسمية، غير أنها لم توضح وظائفها الدلالية في اللغة الإنسانية، فضلاً عن أنها لم تجلِّ مدى الارتباط الوثيق بين الإشارات والألفاظ في تشكيل بنية اللغة وتحقيق وظائفها([1]).

وبعض آخر من الدراسات السابقة([2]) فصَّل القول في إثبات أهمية الإشارات الجسمية على أنها لغة أخرى غير اللغة اللسانية أو الاتصال اللفظي، وكأن الإنسان يستعمل هذه الإشارات منفردة عن الألفاظ في التواصل؛ أو على أنها من مصاحبات اللغة اللسانية، أو ما يسمى عندها بارا لغة Paralanguage أو ميتالغة Mitalanguage، أي إنها من وجهة نظرهم عناصر خارجية تُسهم في إنتاج اللغة ولكنها لا تنضوي في بنيتها أو ضمن مفرداتها .

بيد أن هذه الدراسة تُعيد النظر في هذا الإثبات وما عليه من استدلالات، حيث تسعى من جديد إلى إثبات أهمية الإشارات والحركات الجسمية سواء بالنسبة للغة أم الاتصال – لا على أنها عناصر خارجية غير لغوية تساعد في حدوثهما – بل بكونها مثل الألفاظ عَنَاصرَ لغويةً وجزءًا لا ينفصل ولا يكاد ينفصل عنها في الخطاب اللغوي أو التواصل الإنساني . وهذا ما تكَرِّس له الدراسة جهدها وتنتهج له المنهج الوصفي في رصد العناصر الفاعلة في الواقع اللغوي والاتصال الإنساني . الأمر الذي يحدو بنا إلى إعادة النظر من جديد في مفهوم اللغة، ومفهوم التواصل، ومفهوم الخطاب وتحليله .

([1]) – رجعت الدراسة في ذلك إلى عدد كبير من هذه الدراسات، على نحو ما تشير إليها بعد ذلك، ومن هذه الدراسات : دراسات عربية ، وأجنبية ، ومترجمة . انظر على سبيل المثال : د . مدحت محمد أبو النصر، لغة الجسم دراسة في نظرية الاتصال غير اللفظي، مجموعة النيل العربية ، القاهرة، ٢٠٠٦م ، وانظر : ألن بيز، لغة الجسد، ترجمة سمير شيخاني، دار الآفاق الجديدة ، لبنان ، ١٩٩٧ .

وانظر : R. Hindel :Non – Verbal Communication , (1972), Cambridge University Press.

([2]) – انظر : د . كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩١،٢٢– ٣٣.

هذا، ولا تكتفي الدراسة على صحة فرضية كون اللغة والاتصال ظاهرتين سيميائيتين إلى جانب كونهما لفظيتين، بل تناقش أثر ذلك في تحقيق الدلالة وتوضيح المعنى أو إزالة اللبس عنه أو اختصاره أو تصويره أو تجسيده أو تأكيده أو التعويض عنه؛ الأمر الذي يحفز على تطبيق ذلك على الحديث النبوي الشريف؛ لبيان مدى أهمية إشارات الرسول ε الجسمية وحركاته وهيئاته الجسدية – في بيان أحاديثه النبوية الشريفة وشرحها وبيان مناطات أحكامها .

ولذلك، فإن الباحث يرى أن مقاربة هذه الفرضيات وسَبْرَها يكون من خلال إدارة الحوار حول أربع أفكار محورية، في أربعة مباحث رئيسية، بحيث تتوزع كل فكرة على عدة أفكار فرعية، على النحو التالي :

أولاً : السيميائية : النشأة والتطور

يُناقش في هذا المبحث مصطلح السيميائية Simiology والمصطلحات التي ترادفه، والعلوم التي تتقاطع معه، بالإضافة إلى علاقة العموم والخصوص التي تربطه بمصطلح علم اللغة Linguistics على نحو ما أشار إلى ذلك دي سوسير([1]).

ثانيًا : سيميائية اللغة والاتصال

يجيء هذا المبحث ليثبت تجذر العناصر السيميائية في ممارسة اللغة والاتصال؛ ولذلك فهو يُعالج في موضعين، وهما : –

أ – سيميائية اللغة [ألفاظها وألحاظها]

ب– سيميائية الاتصال [لغته ووسيلته]

ج – اللغة الاتصالية[العلاقة بين اللغة والاتصال]

ثالثًا : السيمياء وأبعاد المعنى

([1]) – انظر : جوناثان كلر ، في كتابه : دي سوسير، ترجمة د . عز الدين إسماعيل ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة، ٢٠٠٠ ، ١٥٥ وما بعدها .

يدرس هذا المبحث أثر العناصر السيميائية في تحقيق وظائف الاتصال وفي استكمال تداوليات الخطاب ومؤثراته، وتشكل بنيته اللغوية، وفَعَّاليته أو أثره في المتكلم والمخاطب بتحقيق أغراض المعنى وقصود الكلام،وبعبارة أخرى فإن هذا المبحث يناقش أهمية السيميائيات اللغوية لكل من المتكلم والكلام المخاطَب؛ ومن ثم فهو يعالج في ثلاث نقاط على النحو التالي :

أ – السيمياء وقصود المتكلم

ب– السيمياء قرينة لفهم المعنى ومقاصد الكلام

ج – السيمياء ومهارات الاتصال

رابعًا: السيمياء وأبعاد المعنى في الحديث النبوي

إذا كانت الدراسة تُعنى في مباحثها السابقة بإثبات سيميائية اللغة والاتصال بصفة عامة، فإنها معنية في هذا المبحث بتطبيق هذه السيميائية على شخص الرسول ε وهو خير من نطق العربية – في لغته وشمائله النبوية في الاتصال، لنرى كيف مارس ε هذه السيميائية في أحاديثه واتصاله وخطابه وتعبيره وتأثيره في المخاطبين والمتلقين عنه، وكيف كان أثرها في معاني الحديث النبوي : توضيحًا واختصارًا وإزالة لبس وتجسيدًا وتمثيلاً وتأكيدًا، من ناحية، وفي استنباط العلماء لأحكامها الفقهية وأدلتها الشرعية من ناحية أخرى . وتأتي معالجة الدراسة لهذه القضايا في ثلاثة مباحث فرعية كالتالي : –

أ – سيميائية الاتصال النبوي

ب– نماذج سيميائية من الأحاديث النبوية(تطبيقات على أنواع السيمياء وأهميتها لمعاني الحديث)

ج – السيمياء في الحديث ومناطات الحكم الفقهي

وبعد التوطئة السابقة بإجمال القول في منهج الدراسة ومواضع تفردها عن غيرها ومباحثها الرئيسية والفرعية، يمكن أن نفصل القول في هذه المباحث على النحو الآتي :–

أولاً : السيميائية : النشأة والتطور

يتولى هذا المبحث مناقشة مصطلح السيميائية Simiology لفظًا ومعنىً، وتطوره عند العرب والأجانب، والمصطلحات التي ترادفه، وكيف ارتبط علم السيميائية في نشأته عند العرب بعلم السِّياسة والفِراسة والقِيافة والعِيافة والزِّيافة، وكيف تطور ارتباطه حديثًا عند كل من العرب وغير العرب بعلوم : الإدارة، والاقتصاد، والإعلام، والاتصال، والتربية ، والنفس، والاجتماع، بالإضافة إلى علاقة العموم والخصوص التي تربط هذا العلم Simiology بعلم اللغة أو اللسانيات Linguistics ، على نحو ما أوضح رائد علم اللغة الحديث دي سوسير([1]).

فلا ريب أن مصطلح [السيميائية] يضرب بجذوره اللفظية إلى أصل عربي، وهذا ما يفسر اختيارنا له دون غيره عنوانًا لهذه الدراسة؛ حيث ذكرت المعاجم العربية لفظ (السيمياء) ضمن حقل لفظي تترادف ألفاظه على معنى واحد، ومن هذه الألفاظ : السمة، والسُّومة، والسيمة، والسيما بالقصر، والسيماء بالمد، والسيمياء بالمد وزيادة الياء، وكل هذه الألفاظ بمعنى واحد وهو (العلامة) ([2]). فضلاً عن أن لفظ (سيما) ورد في القرآن خمس مرات، منها قوله تعالى : (تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) ([3])، بل ورد لفظ (سيمياء) في الشعر العربي في قول أسيد بن عنقاء الفزاري :

غلام رماه الله بالحسن يافعًا — له سيمياء لا تشق على البَصَرْ
كأن الثريا عُلّقت فوق نحره — وفي جيده الشعرى وفي وجهه القمرْ([4])

([1]) – انظر : جوناثان كلر، دي سوسير، ترجمة د . عز الدين إسماعيل، ١٥٥ وما بعدها .

([2]) – انظر : الجوهري ، الصحاح، مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، وكذا : ابن منظور : لسان العرب، وكذا :الفيروز أبادي ، القاموس المحيط، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٥٢هـ : مادة (س و م) .

([3]) – البقرة ٢٧٣، وانظر إلى قوله تعالى : (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ) الأعراف ٤٦، وقوله تعالى :(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) الأعراف ٤٨، وقوله تعالى : (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُود) الفتح.٣٩ ، وقوله تعالى :(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ) الرحمن٤١ .

([4]) – انظر : الجوهري، الصحاح، وكذا : ابن منظور، لسان العرب ، مادة (س و م) .

ولعل ما يلفت النظر أن مصطلح Se'miologie بالفرنسية و Simiotics بالإنجليزية – ويعنى به علم السيميولوجي أو السيموطيقا، أو السيميائية – يعودان إلى الكلمة اليونانية Sema التي تشتبه في لفظها ونطقها مع الكلمة العربية (سيما)، وكلاهما بمعنى العلامة، وهذا ما يجعلنا نقول : إن لم يكن ثمة علاقة تأثير وتأثر، فإن ثمة تشابهًا في الأصول التي يعود إليها علم السيميائية أو العلاماتية عند كل من العرب واليونان .

وإذا كان مصطلح (السيميائية) يعنى في الاستعمال اللغوي العام : العلاماتية أو الإشارية، إلا أنه على مستوى الاستعمال الاصطلاحي الخاص تتعدد حوله المفاهيم والتعريفات، وكلها تدول حول كونه : علم دراسة العلامات والإشارات والرموز داخل نسق أو نظام معين، ليس في حد ذاتها، بل بوصفها أدلة على معانٍ أو دَوَالاً على مدلولات داخل هذا النسق أو ذاك النظام المتعارف عليه، ومعنى ذلك أن علم السيميائية أو علم العلامات يشمل كل المعارف الإنسانية، على أن تُدرس إشاراتُ كل مجال ومعانيها ودلالاتُها داخل نِظَام العلاقات التي تربط بين هذه الإشارات في نسق عام متعارف ومصطلح عليه عند دارسي هذا المجال . وفي هذا الباب يذهب بيير غيرو Pierre Guiraud على حد تعبيره : بأن المعنى علاقة، وهذه العلاقة تغلف كل معنى في اتجاه معنى آخر جديد، وعلم العلامات إذا أراد أن يكون علمًا، فعليه أن يشمل المعارف كلها، والتجربة الإنسانية كلها، وأن الأشياء إشارات، والشيء قد يكون دالا ومدلولا في آن([1]).

ومع أن علم السيميولوجيا هو علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها، أي أنه علم يدرس النظام الكوني كله، لأن كل الإشارات الموجودة في هذا الكون مجبولة على نظام ذي دلالة ([2])– فإن السيميولوجيا اللغوية أو (سيميائية اللغة) أهم النظم السيميائية على الإطلاق على نحو ما ذهب إلى ذلك دي سوسير بقوله : " اللغة

([1]) – انظر : بيير غيرو، علم الإشارة – السيميولوجيا، ترجمه عن الفرنسية منذر عياشي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٨ ، ٢٢ ، ٢٣ .

([2]) – انظر : بلقاسم دفة، علم السيمياء في التراث العربي ، مجلة التراث العربي، دمشق، ع ٩١ ، سبتمبر ٢٠٠٣ .

نظام علامات، يعبر عن أفكار، ولذا يمكن مقارنتها بالكتابة، وبأبجدية الصم والبكم، وبأشكال اللياقة، وبالإشارات العسكرية، وبالطقوس الرمزية ... على أن اللغة هي أهم هذه النظم على الإطلاق، وأعقدها وأكثرها انتشارًا في نفس الوقت "([1]).

ومعنى ذلك أن هذه الدراسة لا تستطيع أن تشمل كل مجالات علم السيميولوجيا بل تقتصر فقط على دراسة سيميائية اللغة أو السيميولوجيا اللغوية بصفتها أهم النظم السيميائية في الحياة الاجتماعية، مع الأخذ في الاعتبار أن دراسة سيميائية اللغة تشمل دراسة العلامات اللسانية [اللفظية] والعلامات غير اللسانية [غير اللفظية] المشاركة في إنتاج اللغة؛ لأن اللغة الإنسانية تقوم على هذين النوعين من العلامات ([2]).

هذا، وقد تعددت المصطلحات التي تطلق على هذا العلم، أشهرها : علم السيميولوجيا، وعلم السيميوطيقا، وعلم الإشارة، وعلم العلامات، وعلم الرموز، وعلم السيميائية، وغير ذلك من المصطلحات التي لا مشاحّة في استخدامها ما دامت تترادف على مفهوم واحد، وهو علم دراسة نظرية الإشارة، أو علم دراسة الإشارة الدالة أيًّا كان نوعها أو مجالها، وذلك في إطار نسقها المعرفي أو الحياتي.

ومن خلال هذا المفهوم العام للسيميائية أو السيميولوجيا تتضح العلاقة التي تربط علم السيميائية Simiology بعلم اللغة Linguistics وهي علاقة العموم والخصوص؛ لأن اللغة في حقيقتها تقوم على نظام من الرموز والإشارات ذات الدلالات الاصطلاحية المتفق عليها، مثلها في ذلك مثل الأنظمة الإشارية الأخرى التي نجدها في لغة الحيوان ولغة الآلة وعلامات المرور وغير ذلك من الأنظمة الإشارية التي يمارسها المجتمع الإنساني في طقوسه وسلوكه وعاداته؛ وإن كانت اللغة الإنسانية أغنى النظم الإشارية وأعقدها دلالة؛ على نحو ما صرح بذلك دي سوسير في دروسه ١٨٠٧ في جامعة جنيف، قائلاً :" إن علم اللغة جزء من علم

([1]) – انظر : جوناثان كلر، دي سوسير، ترجمة عز الدين إسماعيل، ٧١ ، ٧٢، وانظر كذلك : بيير غيرو، علم الإشارة – السيميولوجيا، ترجمة منذر عياشي، ٢٣ ، ٢٤ .

([2]) – انظر : حنون مبارك، دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧م، ٢٩ وما بعدها .

كبير يسمى علم السيميولوجيا أو علم العلامات؛ فنظام الأصوات والكلمات لا قيمة لها ولا معنى لها إلا عندما تصير علامات اعتباطية تمثل رموزًا ومؤشرات لتصورات ذهنية وفكرية في أذهان المتكلمين باللغة "([1]).

أما مجالات دراسة السيميوطيقا اللغوية فيوضحها لنا كندراتوف في كتابه (الأصوات والإشارات) بقوله : " علم السيميوطيقا هو الذي سيبين لنا أوجه الاختلاف بين اللغة ووسائل الاتصال الأخرى، وكذلك أوجه الاختلاف بين لغة الإنسان ولغة الحيوان وما يُسمى أيضًا بلغة الآلة... وهو علم حديث ومعناه نظرية الإشارات والرموز "([2]).أي أن هذا العلم يفرق بين الإشارات والعلامات، فالعلامات هي علامات الكون الدالة على معانٍ في حد ذاتها مثل دلالة السحاب الداكن على نزول الأمطار، ولكن هذه الدلالة غير مقصودة، ومتى أعطاها الإنسان شيئًا من الدلالة الاصطلاحية الاتفاقية الزائدة صارت (إشارات) ذات نسق واصطلاح ([3]). كما يهتم هذا العلم بالتفرقة بين لغة الحيوان ولغة الإنسان، فالحيوان قد يرسل إشارات ذات دلالات، لكنها سطحية ومحدودة ومرتبطة بموقف، وليست عميقة أو ممتدة إلى معانٍ ودلالات في الماضي أو المستقبل كما هو الحال في لغة الإنسان وإشاراته، ولذلك فهو علم دراسة أنساق اللغة والاتصال اللفظية وغير اللفظية ويفرق بينها، موضحًا مميزات اللغة الإنسانية في ألفاظها وألحاظها([4]).

ويعمق أمبرتو إيكو مجال دراسة السيميائية في كتابه (السيميائية وفلسفة اللغة) حيث يُعد السيميائية من أوعى المناهج والنظريات في فهم فلسفة اللغة بصفتها أحد الأنظمة السيميائية وأهمها؛ لأنه لا يسلِّم بأن السيميائية مجرد دراسة العلامات الدالة على معانيها دلالة مباشرة وسطحية، مثل دلالة الدخان على وجود النار، والأثر على المؤثر، بل تبدأ السيميائية من دراسة العلامة اللغوية ليس في دلالتها على موضوعها بل في دلالاتها المجازية والرمزية والتاريخية والنفسية وغير ذلك من الدلالات غير

([1]) – جوناثان كلر، دي سوسير، ترجمة عز الدين إسماعيل، ٧١، ٧٢ ، وانظر تكرار هذا المعنى كذلك : ١٥٥ ، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠.

([2]) – كندراتوف، الأصوات والإشارات، ترجمه شوقي جلال، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة،١٩٧٢، ١٠ .

([3]) – للمزيد انظر : كندراتوف، الأصوات والإشارات، ١٠ ، ١١ .

([4]) – للمزيد انظر : كندراتوف، الأصوات والإشارات، ٣٠ – ٣٢ .

المتناهية التي يُستدل عليها من نسق السياق اللغوي والسياق المقامي والسياق الاجتماعي والثقافي فضلاً عن انعكاساتها عند المتلقي المؤول أو المفسر للنص، ولذلك فالسيميائية عنده منهج في التحليل والتأويل وتوليد الدلالات ([1]).

وبعد أن عرفنا المقصود بالسيميائية في اللغة والاصطلاح، وعلاقتها بعلم اللغة والسيميولوجيا اللغوية والموضوعات أو اهتمامات السيميولوجيا اللغوية – يمكن أن تؤصل لجذور نشأة هذا العلم سواء عند العرب القدامى أو عند اليونان، ونتتبع تطوره في العصر الحديث، ليس لمجرد السرد التاريخي لتطور السيميائية، وإنما لبيان أهمية الإشارات والرموز في الفهم والإفهام والإقناع والبيان، فضلاً عن أهميتها وعلاقتها بمجالات وعلوم عديدة مثل علم : الفراسة والسياسة والإدارة والاتصال، والتربية والنفس والاجتماع، والإعلام وغير ذلك من المجالات والعلوم التي تهم الإنسان معرفتها.

نشأة السيميائية وتطورها عند العرب

إذا كانت السيميائية تعني حديثًا علم دراسة الإشارات الدالة، فإن العرب القدامى وعوا أهمية دراسة الإشارات ودلالاتها في فهمهم نواميس الطبيعة وقوانين الحياة وتعايشهم معها، و في إدراكهم طبائع النفس البشرية وتفرسهم أسرارها في عيافة البشر وسياسة الأمم؛ حيث ظهر عندهم علم الفراسة والقيافة والعيافة والريافة([2])، وكلها علوم استدلالية، يُستدل فيها بالإشارات والعلامات الظاهرة على المعاني والدلالات غير الظاهرة .

فلا شك أن كتبًا ألفها العرب مثل (الفراسة) للرازي، و(السياسة في علم الفراسة) لأبي طالب الأنصاري، و(الظُرْف والظُرَفاء) لأبي الطيب الوشاء، و(

([1]) – انظر : أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة د . أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥، ٥٨ – ٦٨ .

([2]) يذكر الرازي بأن ثمة علومًا عند العرب قريبة من علم الفراسة، منها : قيافة الأثر وهو تتبع آثار المارة والحيوانات، وعيافة البشر وهو تتبع أنسابهم وأجناسهم من خلال جلودهم وأشكالهم، ومنها كذلك : ريافة الماء في الصحراء أي تتبعه من خلال تواجد النباتات والحيوانات وأنواع الرمال الموجودة في المكان .انظر له : الفراسة، ضمن كتاب الفراسة عند العرب، يوسف مراد . الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢ ،١١٣ .

طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي . لتدل دلالة قاطعة على أن للعرب القدامى معرفة وعلمًا بالسيميائية بصفتها علم الاستدلال بالإشارات الظاهرة على المعاني الخفية المتضمَّنة أو الغائبة؛ فقد ذكر كل من الرازي وأبي طالب الأنصاري في تعريفهما علم الفراسة بأنه : " عبارة عن الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة "([1]). وفسرا ذلك بأن أحوال الإنسان الخَلْقية وأفعاله الفطرية ما هي إلا أعراض لأحواله النفسية من : غضب وفرح، وقلق واطمئنان، وغير ذلك من أحوال النفس والمزاج التي تظهر على : وجه الإنسان وعينيه وفرائسه وصوته ويديه وقدميه وسائر أعضائه وتصرفاته العضوية . ولا شك أن هذا العلم وهذه الطريقة في الاستدلال على نحو ما ذهب الرازي قديمًا، وجرجي زيدان حديثًا – لهي نوع من الاستدلال العلمي الصحيح، وهو ما عُرف عند الغرب تحت مصطلح Physiognomy ([2]).هذا، فضلاً عن أن العرب كان لهم علامات يستدلون بها على المحبين أو العشاق، وعلامات أخرى يستدلون بها في معرفة الظرفاء أو أهل الأدب والدماثة واللياقة . وكل ذلك له دوره في تطور السيميائية أو علم العلامات عندهم .

ولقد أدرك الجاحظ ٢٥٥ هـ من قبلُ أهمية الإشارات في الاستدلال بها على المعاني عندما أوضح لنا مفهوم البيان، وحدد لنا وسائله وأنواعه وأسسه، وجعله على قسمين : بيان عام يشمل الخلق والكون أجمع، وبيان خاص وهو البيان اللغوي، وأوضح أن من وسائل البيان النِّصْبة أو الحال القائمة الشاهدة الدالة من غير حركة دلالة إشارة واعتبار والناطقة من غير قول، وفي ذلك يقول الجاحظ : " وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد، ثم الخط، ثم الحال التي تُسمى نصبة بكسر النون "([3]).

([1]) – الرازي، الفراسة، منشور ضمن كتاب : الفراسة عند العرب، يوسف مراد، ١٠٠ ، وانظر كذلك : شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، السياسة في علم الفراسة، القاهرة، ١٩١٤ ، ٣٩ .

([2]) – انظر : الرازي ، الفراسة، ضمن كتاب الفراسة عند العرب، يوسف مراد، ١٠٠ وما بعدها، وانظر كذلك د. جرجي زيدان، علم الفراسة الحديث ، دار الجيل، لبنان، ١٩٨٢، ٥.

([3]) – الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، الخانجي، القاهرة، ١٩٦٩ ، ١/ ٧٦ .

وفرّق الجاحظ بين إشارة الإنسان بيده أو بعضو آخر من أعضائه ودلالتها في البيان اللغوي الخاص، وبين الإشارات أو العلامات الصامتة الساكنة ودلالتها في البيان الكوني العام، وهذا هو الفرق بين ما أسماه (الإشارة، والنِّصْبة) بوصفهما وسيلتين من وسائل البيان . وسنقتصر هنا بتوضيح ما عناه الجاحظ بالنصْبة أو العلامات الساكنة، على أن نؤجل توضيح ما عناه الجاحظ من مصطلح الإشارة ودورها في البيان اللغوي عندما نتحدث عن سيميائية اللغة في المبحث القادم .

فلقد فسر الجاحظ النِّصْبة بقوله : " إنها الحال الناطقة بغير لفظ والمشيرة بغير يد، وذلك ظاهر في كل صامت وناطق "([1])، " فالأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومُعربة من جهة الشهادة على أن الذي فيها من التدبير والحكمة مُخبر لمن استخبره، وناطق لمن استنطقه، كما يخبر الهزال وكسوف اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمن وحسن النضرة عن حسن الحال ... فموضوع الجسم ونصْبته دليل على ما فيه وداعية إليه ومنبهة عليه "([2]). هنا فضلاً عن أن (العقد والخط) بصفتهما وسيلتين من وسائل البيان على نحو ما أشار الجاحظ يُعدان نوعين من الإشارة التي لها دور في البيان الخاص.

هذا، وقد أدرك علماءُ العربية مثل ابن جني في الخصائص والبلاغيون مثل ابن رشيق في العمدة والمفسرون العرب مثل أبي حيان في البحر المحيط، وعلماءُ أصول الفقه مثل الشافعي في الرسالة وابن قيم الجوزية في : أعلام الموقعين عن رب العالمين – أدركوا جميعًا أهمية الإشارة في الاستدلال بها على فهم قصود الكلام والعلاقة بين اللفظ والمعنى وتفسير القرآن واستنباط الأحكام وهو ما سنوضحه بالتفصيل في المبحث الثالث، وهي مرحلة متقدمة جدًّا في إدراك السيميائية بصفتها منهجًا أو نظرية في الاستدلال بالإشارات والرموز في تحليل الدلالات وتوليدها وتأويلها إلى جانب الاستدلال بها من قبل في الوصول إلى المعاني غير الظاهرة أو

([1]) – الجاحظ، البيان والتبيين ، ١ / ٨١ .

([2]) الجاحظ، الحيوان، تحقيق فوزي عطوى، دار صعب، بيروت، ١٩٨٢، ١/٣٠ – ٣١ .

الغائبة، وهذا يعد من أحدث المناحي التي انتحتها السيميائية في العصر الحديث على يد أمبرتو إيكو([1]).

والغريب أن بعض الباحثين العرب في تناولهم السيميائية أو علم العلامات في التراث العربي أو في بيانهم دور اللغويين والبلاغيين والمفسرين والأصوليين في تأصيل علم السيميائية أو علم العلامات – بأوَروا كلامهم على علم الدلالة عند العرب، مثل مفهوم الدلالة عند العرب وتفريقهم بين الدلالة الطبيعية والعقلية والوضعية، والدلالة الإفرادية الأصلية والدلالة التبعية أو النصّية السياقية، وغير ذلك عن أنواع الدلالات، فضلاً عن تصور العرب للعلامات اللسانية [الألفاظ] وعلاقتها بدلالاتها أو ما عرف عند العرب تحت علاقة اللفظ بالمعنى([2]). بل إن ثمة من الباحثين من ذكر أن مصطلح العلامة بالمفهوم السيميائي يساوي مصطلح (الدلالة) في الثقافة العربية([3]).

والحق أني لا أعترض على كون – الألفاظ بوصفها علامات لسانية يُستدل بها على معاني الكلام وقصود المتكلم وتفسيرات النص وتأويلاته – جزءًا من (السيميائية اللغوية) ولكن اعتراضي أن يقتصر حديثنا عن السيميائية اللغوية وسيميائية النص اللغوي على الألفاظ أو العلامات اللسانية، دون التركيز على إشارات المتكلم أو العلامات غير اللسانية المشاركة في إنتاج النص فضلاً عن إشارات المكان والزمان والمقام والمخاطب وسائر تداوليات الخطاب اللغوي، فهذا هو الأصل في التحليل السيميائي للنص، وتبقى الألفاظ ودلالاتها في المقام الثاني عند التحليل السيميائي للنص إلا إذا كانت ألفاظًا مجازية أو حركية سيميائية تصور لنا حركة أو إشارة أو صورة حسية ذات دلالة في النص. وهو ما ستتناوله الدراسة

([1]) – انظر : أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ٥٨ – ٦٨ .

([2]) – انظر : د. محمد سالم سعد الله، مملكة النص : التحليل السيميائي للنقد البلاغي، عالم الكتب الحديث وجدارا للكتاب العالمي، الأردن، ٢٠٠٧، ٨ – ١٤، وانظر كذلك : د. بلقاسم دفة، علم السيمياء في التراث العربي، مجلة التراث العربي، ع ٩١، ٢٠٠٣م .

([3]) – انظر : د. نصر حامد أبو زيد، العلامات في التراث ، ضمن كتاب : أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات، دار إلياس العصرية، القاهرة ، ١٩٨٦، ٧٨ . وانظر له كذلك :إشكاليات القراءة وآليات التأويل،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٦، ٥١.

بالتفصيل في المبحث القادم . هذا فضلاً عن أن العرب لم تقتصر على معرفة السيميائية اللغوية بل عرفت سيميائيات أخرى في قيافتهم الأثر وعيافتهم البشر وتفرسهم أحوال الإنسان الخَلقية وتصرفاته العضوية لمعرفة أمزجته النفسية، على نحو ما أوضحت الدراسة سابقًا

نشأة السيميائية وتطورها عند الغرب

عرف الغرب السيميائية قديمًا وحديثًا على أنها علم عام يشمل المعارف الإنسانية كلها، مثل اللغة، والأمراض، والموسيقى، والاتصالات، والملابس، والنفس، والاجتماع، والطقوس الدينية، وغير ذلك من المجالات المعرفية والاجتماعية التي تعتمد في أساسها على نظام من العلامات ونسق من الإشارات([1]).

وقد بدأت السيميائية في الغرب(مثل بدايتها عند العرب) – باهتمامات أرسطو في كتابه (السياسة في تدبير الرياسة أو سر الأسرار) بعلم الفراسة Phsiognomy الذي عُني به عند اليونان أن جسم الإنسان يخبرنا بواسطة شكله وهيئته وحركة أعضائه – عن حالته النفسية والصحية([2]). ويرى بعض الباحثين أن مبادئ علم الفراسة كانت السبب في تأسيس نظرية الجشطلت Gestalt التي تهتم بسيكولوجية الشكل وأن ثمة علاقة حميمة بين الشكل والمضمون والعلامة ودلالاتها؛ وتعد هذه مرحلة من مراحل تطور علم السيميولوجي عند الغرب([3]).

وتتجلى السيميولوجيا عند الغرب أيضًا في دراسات داروين حول التعبير عن الانفعالات لدى الإنسان والحيوان، وارتباط العواطف والانفعالات والمشاعر مثل الفرح والحزن والرضا والغضب والطمأنينة والفزع والقبول والرفض لدى كل من الإنسان والحيوان – بتعبيرات جسمية تظهر على الوجه والأعضاء وسائر مكونات الجسم من العضلات والجلد والدم .

---

(1) – See . Todorov , Theories of the Symbol , Tra , Catherine Porter , Cornell University , Ithaca , Newyork , 1982 , pp : 15 – 59 .

([2]) – انظر : د . كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، ٤٥ .

([3]) – انظر : د. يوسف مراد، الفراسة عند العرب، ترجمة : د . مراد وهبة، الهيئة المصرية، ١٩٨٢، ١٧.

وتدخل السيميولوجيا أهم مراحل تطورها عند الغرب على يد علماء اللغة مثل دي سوسير والأنثروبولوجيا اللغوية أو (الدراسات الأنثرولغوية) مثل سميث وبيردوسل بدراسة اللغة بوصفها نظامًا للاتصال يعتمد على الإشارات اللفظية والجسمية في آن واحد، ودور كل نوع في عملية الاتصال وهو ما عرف بعد ذلك تحت اسم علم اللغة الحركي Kinescis .

وبذلك تأخذ السيميائية عند الغرب ثلاثة اتجاهات، وهي : -

١- سيمياء التواصل Semiotic of Communication ، ومن أعلامها : بيردوسل ومونان ومارتينيه، حيث العلامة عندهم لا تتحدد دلالتها إلا من مقصدها في الاتصال، ويمكن تخطيط العلاقة بين العلامة ودلالتها في :

العلامة التواصلية ← مدلول تصوري ← مقصد

٢- سيمياء الدلالة Semiotic of Semantic ، ومن أعلامها رولان بارت الذي يشير بإمكانية إفادة العلامة معنى ودلالة سواء أكانت بقصد أم بغير، وسواء أكانت طبيعية أم اصطلاحية، ويمكن تخطيط العلاقة بين العلامة ودلالتها في :

العلامة ← دلالة .

٣- سيمياء الثقافة Simiotic of Culture ، ومن أعلامها: لوتمان وتودروف وأمبرتوإيكو ، وغيرهم ممن يعدون الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقًا دلالية، شريطة أن يكون لها مرجع في الواقع الثقافي للمجتمع، ويمكن تخطيط العلاقة بين العلامة الثقافية ودلالتها في :

العلامة الثقافية ← دلالة تواصلية ← مرجع خارجي واقعي([1]).

ولا شك أن السيميولوجيا اللغوية وسيميائية النص هي التي طفت على السطح سواء على صعيد الدراسات السيميائية العربية أو الغربية، وشغلت كثيرًا من الباحثين هنا وهناك، وأخذت السيميائية منحى في فلسفة اللغة وتحليل النصوص وتوليد الدلالات وتأويلها، وصارت منهجًا في التحليل والتأويل على نحو ما وجدنا عند (أمبرتو إيكو في كتابه: السيميائية وفلسفة اللغة حيث يصرح بأن السيميائية من أوعى

([1]) – للمزيد انظر : د. محمد سالم سعد، مملكة النص، التحليل السيميائي للنقد البلاغي، ١٤ – ٢٥ .

المناهج والنظريات في فلسفة اللغة([1])، وعلى نحو ما نجد عند بعض الباحثين العرب في تبنيهم السيميائية منهجًا لتحليلهم ظواهر اللغة والنص([2]).

وإجمال القول بعد أن أعادت الدراسة النظر في مفهوم السيميائية وتتبَّعت نشأتها وتطورها عند كل من العرب والغرب: يتبين لنا أن السيميائية يُعنى بها منهج دراسة الإشارة والشكل بهدف الوصول إلى الدلالة والمضمون، وأن أية إشارة أو علامة لم تكن غالبًا إلا ليُستدل بها على دلالة أو قصد، وأن هذه الإشارات حركية ومتنامية بحيث يُستدل أحيانًا بالإشارة الواحدة على معنيين، الأول يستدل عليه مباشرة من الإشارة نفسها، والمعنى الثاني يُستدل عليه من المعنى الأول، على نحو ما نوضح في المخطط أو المعادلة الآتية (إشارة معنى معنى آخر مقصود)، مع أخذنا في الاعتبار شيئًا مهمًّا أحب أن ألفت النظر إليه، وهو أن ثمة لكل إشارة مرجعًا ونسقًا يُستشاران أو لنقل يُحتكم إليهما عندما نختلف في فهم الإشارات أو تأويلها أو توليد الدلالة فيها – اختلافًا ينشأ من التباين في مدى اعتمادنا في تحليل الإشارة وتأويلها على مراجع وأنساق أخرى، قد تثري عملية التحليل والتأويل، وقد تشذ به؛ لأنها تنافت أو بُولغ في الاعتماد عليها والاستدلال بها على حساب مرجع الإشارة ونسقها .

ثانيًا : سيميائية اللغة والاتصال

يأتي هذا المبحث ليُفيد من تحرير المبحث الأول لمفهوم السيميائية – في تحرير مفهوم اللغة، ومفهوم الاتصال، وبيان مدى تجذر السيميائية في كل من اللغة والاتصال . فإذا كانت السيميائية تؤطر بثلاثة أطر أساسية، وهي (الإشارة والشكل والهيئة – الدلالة والقصد – المرجع والنسق) فإن اللغة في ألفاظها وألحاظها، والاتصال في وسائله لا يخرجان عن هذه الأطر الثلاثة . ويمكن أن نوضح هذه

([1]) – انظر : أمبرتوإيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ٤٠ .

([2]) – انظر : د. محمد إقبال عروي، السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج ٢٤، ع٣ ، ١٩٩٦ . وانظر كذلك : المصطفى شادلي، دراسة سيميائية لقصيدة شعرية عربية معاصرة، مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط ،ع ١٢، ١٩٨٦م.

الأطر السيميائية التي تسورت بها فلسفة اللغة والاتصال في مباحث ثلاثة نجملها ثم نفصل القول فيها على النحو الآتي :

- سيميائية اللغة : ألفاظها وألحاظها
- سيميائية الاتصال : ووسائله
- اللغة الاتصالية (العلاقة بين اللغة والاتصال)

أ – سيميائية اللغة : ألفاظها وألحاظها

تتجلى سيميائية اللغة – على نحو ما سنوضح بالأدلة – في كنهها ونظام بنائها وفلسفة وجَودها، وفي واقعها الاستعمالي ومستويات الممارسة: تحدثًا وقراءةً واستماعًا وكتابةً، بل في نشأتها وتطورها، حيث نشأت اللغة في معظمها إشارية ثم تطورت لفظية.

فمما يُؤْثر عن اللغويين العرب والأجانب في تصورهم عن اللغة وإدراكهم لكنهها ونظام بنائها أن اللغة تجري مجرى العلامات([1])، أو هي بالفعل نظام من العلامات([2])، أو ضرب من السلوك أساسه الفعل ورد الفعل([3])، أو مشهد سياقي يعتمد على أحداث كلامية وأخرى غير كلامية([4]) . وكل هذه التعريفات تجعل من اللغة مشهدًا سلوكيًّا وخطابًا حواريًّا يتنازعه متكلم ومخاطب أو مرسل ومستقبل بهدف التعبير والإقناع والتأثير أو غير ذلك من أهداف يتقاسمها أطراف الحوار، كل حسب قدرته على استخدام الرموز والإشارات اللفظية من (كلمات وتراكيب وأساليب) وغير اللفظية من [حركات الجسم وهيئاته وألحاظه] .

ومعنى ذلك أن القول بأن اللغة "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، على نحو ما عرفها العلامة ابن جني([5]) – قول فيه نظر، ويجب أن يُحمل على أنه

([1]) – انظر : عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ٢٧٧.

([2]) - انظر : جوناثان كلر، دي سوسير، ٧١.

([3])- Bloommfield, Language , Chicago , 1955 , p . 139 .

([4]) – انظر نظرية فيرث للمعنى والسياق: روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع ٢٢٧ ، ١٩٩٧ ، ٣٤٩ .

([5]) – ابن جني، الخصائص ، ١ / ٣٣ .

وصف من أوصاف اللغة، وليس على أنه تعريف جامع لكل أوصاف اللغة وخصائصها المميزة لها؛ لأن من ينظر إلى واقع اللغة المتجلي في عملية الكلام والاتصال اللغوي بين الإنسان وأخيه الإنسان، لا محالة يجد أنها – على نحو ما أشرنا – عملية ينفعل لها سائر أعضاء جسم الإنسان وملكاته الجسدية والنفسية والذهنية، وتتداح فيها العناصر اللفظية من (كلمات وجمل وأساليب وأداءات صوتية تنغيمية) وغير اللفظية من (إشارات الجسم وألحاظه وهيئاته) – في بنية لغوية واحدة متماسكة ومتمازجة، بحيث تتعاضد فيها ألفاظها وألحاظها في تحقيق دلالاتها والإبانة عن أغراض المتكلم وقصوده وإقامة الاتصال مع المتلقي أو المخاطب بإخباره أو إقناعه أو التأثير فيه شعوريًّا وفكريًّا وسلوكيًّا .

أ – ١ – سيميائية اللغة في ألحاظها

لم يعد مُسْتَغربًا أن نقول بأن اللغة لفظ ولحظ، وأن الإنسان يستعين بل لا يستغني عن هيئاته الجسمية وإشاراته العضوية في حديثه وخطابه وحواره مع الآخرين، فالإنسان في حواره وعند نطقه أقصر كلمات اللغة مثل (نعم) أو (لا) لإجابة المخاطب بالقبول أو الرفض، نجده إلى جانب نطقه باللسان – قاصدًا أو غير قاصد – يهز رأسه أعلى وأسفل لتأكيد القبول، ويهز رأسه يمينًا ويسارًا لتأكيد الرفض، ليس هذا فحسب، بل قد يستغني المتكلم عن نطق (نعم) أو (لا) ويكتفي بالإشارة الدالة على جوابه .

ونظرًا لأن اللغة لفظ ولحظ، كلمات وإشارات في آن واحد – جاء مصطلح (لغة) في الاستعمال غير خاص باللغة اللفظية، فثمة مستويات كثيرة من التواصل اللغوي حملت نفس مصطلح (لغة)، فهناك لغة الإشارة مقابل لغة الكلام، ولغة الحيوان مقابل لغة الإنسان، واللغة الأدبية مقابل اللغة العلمية، واللغة المكتوبة مقابل اللغة المنطوقة، واللغة المرئية مقابل اللغة المسموعة، واللغة اللفظية أو الاتصال اللفظي مقابل اللغة غير اللفظية أو الاتصال غير اللفظي ([1]).

([1]) – انظر : د . كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، ٢٢، ٢٣ .

وبذلك يصبح مصطلح (لغة) يُعنى به وسيلة التفاهم وطريق التواصل بين المتكلم والمخاطب أو المرسل والمستقبل، وهو مصطلح عام بعموم وسيلة التواصل ومتعدد بتعددها، وليس خاصًا بالنظام اللفظي في التواصل، بل هو عام بعموم التواصل متعدد بتعدد وسائله .

وبعبارة أخرى فإن هذه الدراسة تؤكد على (عموم مصطلح لغة) وشموله كل وسائل عملية الاتصال بين المرسل والمستقبل، وأن مصطلح النص اللغوي أو الخطاب اللغوي لا يُعنى به مجموع الألفاظ والتراكيب والأساليب اللفظية فقط بل يُعنى به من وجهة نظر الدراسة مجموع العناصر التي تُتَدَاوَل في إجراء الخطاب وتفعيل الاتصال، تلك العناصر التي اصطلح عليها حديثًا تحت اسم (تداوليات الخطاب)، وما لها من أهمية قصوى لأمن اللبس ومنع الزيغ والانحراف عند تحليل النصوص وفهمها ونقدها أو إبداع الدلالة فيها ([1]).

وتُعد الإشارات الجسمية من أهم تداوليات الخطاب التي يمارسها كلُ من المرسل والمستقبل في ممارسة اللغة وإجراء الخطاب وتفعيل عملية الاتصال. فهي جزء لا يتجزأ من عملية الاتصال اللغوي، حيث يستخدمها أطراف الحوار قبل الكلام وبعده وأثناءه، وهي إشارات متعددة بتعدد حواس الإنسان وإمكاناتها الحركية، ولها معان اصطلاحية ووظيفية وبلاغية وأسلوبية متعارف عليها بين الجماعة اللغوية. وإضافة إلى ما سبق والأهم في هذا الباب أن بعض هذه الإشارات الجسمية الدالة مكتسب وبعضها يَظهر على كل من المتكلم أو المخاطب أثناء تجاذب أطراف الكلام – بصورة عفوية فطرية دالة على مشاعرهما وعواطفهما وأفكارهما وتأثير الكلام فيهما؛ الأمر الذي يجعلنا نقول بملء فينا : إنها جزء لا يتجزأ من كينونة اللغة ونظام بنائها وفلسفتها، وليست وسيلة مصاحبة، يمكن الأخذ بها أو تركها أثناء إجراء الخطاب أو إقامة الاتصال بين المرسل والمستقبل، كما أنها في معظم حالات الاتصال باستثناء بعض الحالات الخاصة، ليست لغة مستقلة بذاتها، بل هي تتزاوج مع الألفاظ والكلمات في تشكيل متن اللغة الإنسانية وتحقيق الدلالة فيها.

([1]) – انظر : د. محروس محمد إبراهيم، تداوليات الخطاب وضوابط الرواية والتلقي ، مجلة علوم اللغة ، مكتبة غريب ، القاهرة ، مج ١٢ ، ع٢ ، مارس ٢٠٠٧ .

وهذا ما تأخذه الدراسة على كثير من الدراسات التي جاءت تحت عنوان اللغة الإشارية Sign Language أو الإشارات الجسمية أو لغة الجسم Body Language أو اللغة الصامتة Silent language أو اللغة غير المنطوقة أو غير اللفظية Non- verbal language أو Unspoken language أو الاتصال غير اللفظي Non – verbal communication ([1])، حيث ركزت بعض هذه الدراسات إما على بيان أن الإشارات الجسمية لغة مستقلة بذاتها في التواصل أو هي مجرد إشارات مصاحبة للغة التواصل اللفظي في الحياة الإنسانية

فمعظم الدراسات التي عالجت الإشارات الجسمية وأهميتها في عملية الاتصال اللغوي في الحياة الإنسانية، لم تعالجها ضمن الحديث عن اللغة الإنسانية بصفة عامة وأن هذه الإشارات الجسمية Gesture والهيئات الجسديةPosture لا تفترق عن الإشارات اللفظية أو الكلمات words في كونها جميعًا وسائل تستخدمها اللغة الإنسانية متعاضدة في تحقيق دلالاتها وأغراضها؛ وإنما عالجتها في باب مستقل أو بعنوان مستقل وكأنها لغة غير اللغة اللفظية، على نحو ما نجد عند إدوارد هول في كتابه : اللغة الصامتة The Silent Language وكل من : جوليس فاست في كتابه Body Language وألن بيز في كتابه لغة الجسد والدكتور مدحت محمد أبي النصر في كتابه لغة الجسم ، وكل من مهرابيان وهندل في كتابهما : الاتصال غير اللفظي Non –Verbal Communication .

والملاحظ أن الباحثين لم يُوَفَّقوا –من وجهة نظر الدراسة– في اختيارهم عنوانًا لدراستهم دور الإشارات الجسمية في التواصل اللغوي الإنساني إلا كل من: وينر ومهرابيان في كتابهما : لغة داخل اللغة Language within Language والأستاذ الدكتور كريم زكي حسام الدين في كتابه : الإشارات الجسمية، دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل؛ لما يعكسه هذان العنوانان من دراسة

([1]) – انظر شرح هذه المصطلحات والجذور التاريخية للغة الجسم : د. مدحت محمد أبو النصر، لغة الجسم، دراسة في نظرية الاتصال الإنساني غير اللفظي ، القاهرة، ٦١ – ٧٦ .

دور الإشارات الجسمية في تزاوجها مع الإشارات اللفظية في تحقيق الدلالات وأغراض التواصل اللغوي الإنساني .

والغريب أن هذه الدراسات السابقة – التي أشرتُ إليها – في تعريفها الإشارات الجسمية أو في معالجة دورها في التواصل لم تُبرز كينونتها جزءًا من اللغة الإنسانية وصنوانًا للإشارات اللفظية؛ بل إني لا أبالغ إذا قلت بأن بعض هذه الدراسات نصَّ على استقلال لغة الإشارات الجسمية عن اللغة اللفظية، وبعضها ينصّ على كونها إشاراتٍ وأفعالاً سلوكية غير لغوية، ومن هذه التصريحات ما يلي :

فقد استخدم د. علي زيعور مصطلح اللغة الجسدية في مقابل اللغة الكلامية في أحد عناوين بحثه ما نصه : " اللغة الكلامية واللغة الجسدية : التعبير بالكلمة والتعبير الفيزيولوجي "([1]) بل نص في عنوان كتابه على " لغة الجسد والتواصل غير اللفظي في الذات العربية ". كما نص كندراتوف على كون هيئات الجسد وحركات أعضائه مكمّلة للغة الكلامية، ودائمًا يُنظر إليها على أنها غير أساسية وتأتي مساندة للألفاظ أو مشكّلة خلفية للمعاني أو على نحو ما يسمه كثير من علماء السيميولوجيا بـ (ما وراء اللغة أو ميتا لغة Meta language ، إذ يقول: " ونلاحظ أن إشارات اليد والتعبير بحركات الوجه يتخذ لدى شعوب أوربا الحديثة جانبًا مكملا للغة وليس بديلاً لها ... وإذا توفر لنا فرضًا منهج دقيق وبسيط لنسجل الحركات أو ما وراء اللغة Meta language كما يسميها علماء السيميوطيقا ... فإننا نستطيع أن نكدس منها ما يكفي لعمل قاموس ضخم للحركات أو لغة الإشارة التي يستخدمها كل شعب في الحديث بين أبنائه "([2]).

هذا، وقد كانت د / فاطمة محجوب دقيقة في الحديث عن الإشارات الجسمية بوصفها تمثل " النظام المرئي الذي يصاحب النظام الصوتي السمعي للغة " ([3]) بل جعلتها ثالث ثلاثة مقومات للكلام، وهي: الأصوات المنطوقة والرموز الخطية التي

([1]) – د. علي زيعور، اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظي في الذات العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٩١ ، ص ٦٦ .

([2]) – أ . كندراتوف ، الأصوات والإشارات ، ١٨ – ١٩ .

([3]) – د . فاطمة محجوب، دراسات في علم اللغة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، المقدمة ، ن.

تعبر عنها وتحمل دلالتها، والحركة الجسمية التي تصحبها لكي تؤكدها أو تحدث بدونها تعبيرًا عنها([1]) . ولكن الغريب أن الدكتورة فاطمة محجوب وصفت الحركات الجسمية التي تصدر عن المتكلم أثناء كلامه في سماعة التليفون مثلاً – بأنها غاية في حد ذاتها([2])؛ والحقيقة – في نظري – أنها ليست غاية يقصد إليها المتكلم، بل هي حركات تحدث شعوريًّا أو لا شعوريًّا تساعد المتكلم في التعبير عن أفكاره وانفعالاته أولاً، وإذا واجه بها المخاطَبَ فإنها تعينه على التواصل معه والتأثير فيه ثانيًا؛ وبذلك فإن هذه الحركات الجسدية التي يصدرها المتكلم يتوسل بها إلى غاية الاتصال سواء مع ذاته فحسب، أم مع ذاته ومع مخاطبه في آن .

وإذا قلبنا صفحات كثير من الدراسات التي اهتمت بالحركات الجسمية ودورها في التواصل اللغوي ألفينا كثيرًا من التصريحات التي تنصّ على أن هذه الحركات الجسمية تمثل نوعًا مختلفًا من الاتصال وضربًا مغايرًا عن اللغة يختلف أو يستقل عن الاتصال اللفظي أو اللغة الكلامية، في حين أن كلا من الحركات الجسمية والألفاظ يتعاضدان ويتداخلان في تشكيل ضربٍ واحد من الاتصال اللغوي أو الإنساني، وليس بينهما معاكسة في الدلالة أو الوظيفة أو الغاية؛ حيث يمارس الإنسان اللغة والاتصال بأخيه الإنسان عبر الألفاظ وحركات الجسد في وقت واحد وبصورة متكاملة.

ولذا، فإن مما يُنبه إليه الباحث خطورة الفصل بين الألفاظ وحركات الجسم أثناء الحديث عن ممارسة اللغة والاتصال الإنساني عامة، بل يجب عندئذ التأكيد على أهمية الربط بينهما؛ لأن الواقع اللغوي وممارسة الاتصال الإنساني يدمج بينهما فلا ينفصلان.

فمن محاذير هذا الفصل بين الألفاظ وحركات الجسم في ممارسة اللغة والاتصال الإنساني (ولو على سبيل الدراسة) دون الإشارة والتنبيه إلى أهمية الربط بينهما – أننا وجدنا بعض الباحثين لم يوفقوا في العبارة عن وصف حركات الجسم ودورها في الاتصال اللغوي، على نحو ما نجد الدكتور مدحت أبا النصر يصف

([1]) – انظر : د . فاطمة محجوب ، دراسات في علم اللغة ، المقدمة ، م.

([2]) – انظر : د . فاطمة محجوب ، دراسات في علم اللغة، ١٥٩ .

الاتصال غير اللفظي Non –Verbal Communication بأنه " عكس الاتصال اللفظي لا يعتمد على الألفاظ والكلمات والجمل والعبارات في التواصل مع الآخرين "([1]) ولعل الأدق في التعبير هنا أن يقول بأن الاتصال غير اللفظي خلاف الاتصال اللفظي، إذ لا معاكسة بينهما وإن كانت ثمة مغايرة .

ولعل من أوعى الدارسين الذين أدركوا أهمية الإشارات الجسمية في ملازمة الألفاظ ومصاحبة الكلمات لتحقيق وظائف اللغة وغايات الاتصال– الدكتور كريم زكي حسام الدين في دراسته(الإشارات الجسمية: دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل)؛ إلا أن ثمة بعض العبارات التي جاءت وتكررت في دراسته يجب أن يُوقف عندها ويُعاد النظر فيها؛ لأنها تشي في النهاية بأن الإشارات الجسمية ثانوية وليست ذات أهمية في ممارسة اللغة والاتصال: ومن هذه العبارات، عبارة(الاتصال غير اللغوي Non - Verbal Communication)([2]) التي يُوصف بها الاتصال عبر الحركات الجسمية، وكأن هذا النوع من الاتصال يوصف بأنه اتصال غير لغوي في مقابل الاتصال اللغوي الذي يعتمد على الألفاظ والكلمات . والحق أن من ينظر إلى واقع الاتصال الإنساني يُلْفِ أنه اتصال واحد شامل يوصف بأنه اتصال لغوي تعتمد بنيته الاتصالية Communication Structure على كل متكامل ومتمازج من الألفاظ والكلمات وحركات الجسم وألحاظه، وقلما نجد اتصالاً – في عموم الاتصال الإنساني أي باستثناء الحالات الخاصة – يقتصر على الحركات الجسمية وحدها أو الألفاظ وحدها، وإن كان كلٌ من : الألفاظ وحركات الجسم وهيئاته يمثل نظامًا من أنظمة اللغة والتفاهم ووسيلة من وسائل التعبير والتواصل، إلا أنه ليس ثمة اتصال لغوي وآخر غير لغوي ولكن ثمة – لو سلمنا فرضًا وجود قسمة – اتصال لفظي وآخر اتصال غير لفظي . ولعل في ذلك دليلاً على أن مصطلح (الاتصال غير اللفظي) يعد الأدق في ترجمة المصطلح الأجنبي Non Verbal Communication - ، من مصطلح (الاتصال غير اللغوي) الذي

([1]) – د. مدحت أبو النصر، لغة الجسم، ٦٤ .

([2]) – انظر : د. كريم زكي حسام الدين ، الإشارات الجسمية، ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ٣٠ .

شاع استخدامه بين الباحثين رغم عدم دقته؛ لأن كلمة Verbal في اللغة الإنجليزية معناها شفوي أو لفظي أو حرفي([1]).

ومن العبارات والمصطلحات التي استخدمها الدارسون للإشارات الجسمية ودورها في اللغة والتواصل، واسترعت اهتمام الباحث والوقوف عندها لتحليلها وبيان مدى دقتها: مصطلح : بارا لغة Para Language أو ميتا لغة Meta Language حيث أطلق بعض الباحثين مثل كندراتوف – كما أشرنا سالفًا– هذا المصطلح على هيئات الجسم وحركاته بوصفها عناصر مكملة للألفاظ في دلالاتها ومساندة للكلمات في معانيها([2])، أي إنها عناصر مكملة ومساندة وليست أساسية في أداء الدلالة؛ لأن كلمة Para معناها في الإنجليزية : جانب، وكلمة Meta معناها : خلف أو ما وراء أو بعد([3])، وبالتالي فهي مصطلحات توحي بأن هيئات الجسم وإشاراته لا تزيد – في ممارسة اللغة والاتصال – عن كونها ظلالاً للمعاني اللغوية ومكملات للاتصال؛ في حين أثبتت الدراسات في علم الاتصال الحديث أن خمسة وستين في المائة من مؤثرات المعاني اللغوية والاتصال تعود إلى هيئات الجسم وإشاراته([4])، على نحو ما سنوضح بعد قليل .

ومما استرعى انتباهي كذلك وأراني مدفوعًا إلى الإشارة إليه والتعليق عليه بعض التعريفات العلمية لمصطلح : الإشارات الجسمية، حيث عرفها أستاذنا الدكتور كريم حسام الدين بأنها : " تعبير أو فعل أو وضع جسمي اصطلحت عليه الجماعة اللغوية، يصاحب الكلام أو لا يصاحبه، ويدل على معنى يقصده المتكلم ويدركه المستمع "([5]).

فإذا كان يُشترط في حد الشيء ومفهومه – على حد تعبير المناطقة – أن يكون جامعًا مانعًا، فثمة في تعريف الدكتور كريم للإشارات الجسمية عبارات مثل: (اصطلحت عليه) و (معنى يقصده المتكلم) لا تتفق وشرط الجمع أي جمع حدود

([1]) – منير البعلبكي ، المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٩٩م .

([2]) – انظر : أ . كندراتوف، الأصوات والإشارات، ١٨ – ١٩ .

([3]) – منير البعلبكي ، المورد .

([4]) – انظر : ألن بيز ، لغة الجسد ، تعريب سمير شيخاني ، ٨ .

([5]) – د. كريم زكي حسام الدين ، الإشارات الجسمية ، ١٠٣ .

الشيء وأوصافه الدالة عليه، حيث قصرت العبارة الأولى والثانية الإشارات الجسمية على الإشارات والحركات الجسمية المكتسبة أو المتواضع عليها دون الإشارات الفطرية مثل الابتسامة عند الإعجاب والبكاء عند الحزن واحمرار الوجه عند الخجل وانقباض أسارير الوجه عند الغضب وانفتاحها عند الرضا، وارتعاد الأطراف عند الخوف والاضطراب، وغير ذلك من العلامات الفطرية الدالة والمعبرة عن المعاني والكاشفة عن المشاعر، سواء بقصد المتكلم أو بغير قصده؛ وبذلك تضيق هاتان العبارتان ما وسعه مصطلح (الإشارات الجسمية) عند علماء اللغة والاتصال بما فيهم الدكتور كريم نفسه ([1])– من حركات الجسم وسكناته وألحاظه وهيئاته حتى ملابسه نوعها وألوانها وتسريحة شعره وأنواع الطيب والروائح التي يستخدمها، فضلاً عن نبرة الصوت وإيقاعه، وغير ذلك من حركات وسكنات، تنغيمات وإيقاعات، ألحاظ وهيئات، سلوكيات وأفعال، سواء أكانت على حد تعبير الرازي([2]): أفعالاً تكليفية صادرة بحسب تأديب العقل ورياضة الشرع، يمكن الاستدلال بها على معانٍ وأفكار بطريقة عرفية تواضعية، أم كانت أفعالاً فطرية خَلْقية، يُستدل بها على الأخلاق والأحوال الباطنية . والملاحظ هنا أنه سواء أكانت هذه الإشارات الجسمية فطرية أم عرفية تكليفية فإنها دالة ومعبرة ومؤثرة في اللغة والاتصال، ويجب أن توضع في الاعتبار عند إجراء عملية اتصال أو تحليلها .

وهذا ما راعته بعض التعريفات الأخرى للإشارات الجسمية، مثل تعريف الدكتور مدحت أبي النصر لها، بأنها :" إشارات وحركات إرادية وغير إرادية تصدر عن الجسم بأكمله أو بجزء منه لإرسال رسالة انفعالية إلى المحيطين بالإنسان "([3]).

ولعل مما يَسْتمسك به الباحثُ شواهدَ وأدلةً على فكرته (سيميائية اللغة في ألحاظها) ما ذكره علماء اللغة القدامى والمحدثون في مثل هذا الباب – من مقولات تؤكد جميعها على أن الإنسان يتكلم بجسمه لا بلسانه فحسب، وأن حسن الإشارة من البلاغة، ورب إشارة أبلغ من عبارة، ورب لحظ أنم من لفظ، وأن اللغة في كنهها

([1]) – انظر : د. كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، ٩٨ – ٩٩ ، ١٣٩ وما بعدها .

([2]) – انظر : الرازي، الفراسة، ضمن كتاب الفراسة عند العرب للدكتور يوسف مراد، ١٠٨ .

([3]) – انظر : د. مدحت أبو النصر ، لغة الجسم ، ١٢ .

تجري مجرى العلامات، ولا يكفي أن نقول بأن الإشارة تصاحب الألفاظ والكلام، بل الكلام نفسه جزء من الإشارة، وأن الإشارة تعد أصلاً للغة المنطوقة وسابقة عليها.

ومن أُوَل المقولات التي نستند إليها في هذا الباب ما ذكره الجاحظ ٢٥٥ هـ في بيان دور الإشارة وأهميتها في ممارسة الكلام وإجراء الخطاب، قال : " والإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له ونعم الترجمان " ([1])، ولا أدل على إدراكه أهمية الإشارة لممارسة اللغة والاتصال من جعله اللفظ مجرد وسيلة واحدة من وسائل البيان التي قسمها في الحيوان على أربع مراتب، وهي : اللفظ والإشارة والعَقْد والخط ([2])، وزاد عليها في البيان والتبيين مرتبة (النِّصبة)([3])، ولعل من ينعم النظر في وسائل البيان ومراتبه عند الجاحظ يجدها في حقيقتها تنقسم على قسمين : اللفظ، والإشارة بمستوياتها المتعددة، من : إشارة باليد أو بعضو من أعضاء الجسم، أو بشيء خارجي، أو إشارة بالعَقْد والحساب بالأصابع، أو إشارة بالخط، أو إشارة بالنِّصبة وهي الحال الناطقة بغير لسان، المشيرة بغير يد؛ وبذلك تصبح اللغة ونظرية البيان والتبيين (الاتصال) عند الجاحظ قائمة على وسائل خمس لا تتعداها ولا تزيد عليها؛ أربع وسائل منها معتمدة على الإشارة، ووسيلة واحدة وهي الألفاظ، ولا تخلو هي الأخرى – من وجهة نظر الباحث – من الاعتماد على الإشارة، كما سنوضح بعد ذلك، فيصبح أكثر من أربعة أخماس اللغة والاتصال قائمًا على الإشارة دون اللفظ، وهذا ما توصلت إليه أحدث الدراسات في علم الاتصال، حيث ذكر ألن بيز عن مهرابيان وبردوسل أن خمسة وستين في المائة من فعالية الاتصال تعود إلى استخدام الإشارات الجسمية، وأن ثمانية وعشرين في المائة تعود إلى نغمات الصوت وإيقاعه، وأن سبعة في المائة فقط مرجعها إلى استخدام الكلمات ([4]).

ولم يكتفِ الجاحظ ببيان أهمية الإشارة ودورها في البيان فحسب، بل أوضح مكانتها في البلاغة والتبيين، فورد عنه قوله : " قيل للهندي : ما البلاغة. قال

([1]) – انظر : الجاحظ ،البيان والتبيين ، ٧٨/١ .

([2]) – انظر : الجاحظ ، الحيوان، ٣٠/١ .

([3]) – انظر : الجاحظ ،البيان والتبيين، ٨١/١ .

([4]) – انظر : ألن بيز، لغة الجسد، ٨ ، وانظر : جاك جريفن، كيف تقولها في العمل، ترجمة مكتبة جرير، السعودية، ٢٠٠٠ م ،٢١–٢٢ .

وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة " ([1]) وقال في موضع آخر : " وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان ... "([2]) وقال : "ولا بدَّ لبيان اللسان من أمور منها؛ إشارة اليد "([3]) و" مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت"([4]) وكل هذه العبارات وغيرها التي صرح بها الجاحظ ونقل بعضَها عنه شارحًا إياها مَنْ جاء بعده من أهل البلاغة مثل ابن رشيق ٤٥٦هـ في العمدة([5]).

ومعنى ذلك أن دور الإشارات والحركات الجسمية في ممارسة اللغة والاتصال لا يُنكر، وأن هذا الدور لا يقل إنْ لم يزد عن دور الألفاظ والكلمات، وأن كلاً من الإشارات والألفاظ يتلازمان جنبًا إلى جنب؛ لكي تؤدي اللغة والاتصال وظائفها، وهذا ما أكده كل من اللغوي الإيطالي ماريوباي Mario,Pei واللغوي الفرنسي فندريس Vendryes واللغوي الأمريكي Bloom Field ؛ حيث ذهب ماريوباي إلى أن الإشارة هي أصل اللغة المنطوقة وسابقة عليها، وأن ثمة أكثر من ٧٠,٠٠٠ إشارة مميزة تؤديها تعبيرات الوجه وأوضاع الجسم وإشارات وحركات الرأس واليدين والأصابع، وهذا يكفي لكي يكوّن نظامًا من الرموز الإشارية يساوي نظام لغة الألفاظ ([6]).

وهذا القاموس من الإشارات والنظام اللغوي لها، يمكن أن يسد الحاجة في التواصل، على نحو ما ذهب بلومفيلد الذي يذكر " أن الإشارات الجسمية تصاحب كلامنا كله، وأنها تخضع إلى حد كبير مثل اللغة إلى التواضع الاجتماعي، ولهذا فهي تختلف من مجتمع لآخر، كما أنها تستعمل في بعض المناسبات بدلاً من الكلام لدى بعض قبائل الهنود الحمر شمال أمريكا التي تختلف لغاتها، ولدى بعض

([1]) – الجاحظ ،البيان والتبيين، ٨٨/١ .

([2]) – الجاحظ ،البيان والتبيين، ٧٩/١ .

([3]) – الجاحظ ، الحيوان، ٤١/١ .

([4]) – الجاحظ ، الحيوان، ٣٩/١ .

([5]) – انظر : ابن رشيق، العمدة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣ ، المكتبة التجارية، ١٩٦٣، ٣٠٩/١ .

(3) - Mario , Pei : The Story of Language / Philadelphia , U. S . A , 1949 pp. 11 – 13 نقلاً عن د . كريم حسام الدين، الإشارات الجسمية ، ٣٢ .

جماعات الرهبان الذين يصومون أحيانًا عن الكلام . كما تعتبر وسيلة للتخاطب الأساسية للصم والبكم " ([1])

ويذهب فندريس مؤكدًا دور الإشارات الجسمية في ممارسة اللغة إلى القول "بأن الإشارة تصاحب الكلام إلى حد أنه لا يوجد شخص يتكلم دون التوسل بالإشارة([2])، بل يذهب فندريس إلى ما هو أبعد من هذا فيذكر أنه لا يكفي أن نقول " بأن الإشارة لا تفارق الكلام، لأن الكلام نفسه يعتبر جزءًا من الإشارة"([3]).

ومن ثم يتبين لنا من أقوال علماء اللغة العرب والأجانب ودراساتهم ومن ممارسة اللغة وواقع عملية الاتصال – تأصل الإشارات الجسمية في بناء اللغة إلى حد تُوصف عنده اللغة بالسيميائية، تلك السيميائيةُ التي وُجدت مع بداية حاجة الإنسان للغة، واستمرت معه في ممارسته إياها في التعبير والاتصال، بدليل ما نجده من تماثيل المصريين والإغريق والرومان في المعابد التي بنوها، حيث تعكس هذه التماثيل وضعية الجسم وإشارات اليدين والعينين وغير ذلك من الإشارات الدالة ([4]).

فالإنسان في ممارسته للغة قديمًا وحديثًا يتكلم بجسده كما يتكلم بلسانه، وإن لحركات الجسد رموزًا مثلما يكون للألفاظ أيضًا رموز، فللأصوات والحركات والصراخ، ومواقع الجسد الفردي داخل موكب أو قرب طاولة دلالات معروفة ومتداولة بين أفراد الجماعة اللغوية، ولا ينفك عن استعمالها الإنسان في ممارسته الكلام . فكل منا يشير ويلوح بيديه واعدًا ومتوعدًا، ويومئ برأسه رافضًا وموافقًا، ويفتح ويزم شفتيه حزنًا وفرحًا، ويرمز ويغمز بعينه حبًّا وبغضًا، بل إن المتكلم قد يجد كلماته في عَوَز إلى الإشارة للتعبير عن مشاعره وأفكاره، بل قد يحس المتكلم

([1]) – Bloomfield :Language , Chicago , 1955 , pp . 39 – 40.

([2]) – Le Language Oral et Le Language pargestes , Journal de Psychologie Normale et Pathologique , Tome x L III Anne′e 1950 , pp . 7, 8, 12.

نقلاً عن د : كريم حسام الدين، الإشارات الجسمية، ٣٢ – ٣٣ .

([3]) – Le Language Oral et Le Language par gestes , Journal de PsychologieNormale et Pathologique, Tome x L III Anne′e 1950 , pp . 7, 8, 12.

نقلاً عن د : كريم حسام الدين، الإشارات الجسمية، ٣٢ – ٣٣ .

([4]) – انظر : د . مدحت أبو النصر، لغة الجسم، ١١ .

بحاجة المخاطب نفسه إلى الإشارة ليفهم عنه قصوده ومعانيه؛ فتُعين الإشارةُ الكلمات عندئذٍ، وأحيانًا تنوب عنها تمامًا وتقوم مقامها وتؤدي دورها في التعبير والتوصيل، بل ربما تكون أبلغ منها في كفاية حاجة المتكلم والمخاطب من اللغة والاتصال؛ ولهذا ورد عن العرب القدامى قولهم : رب إشارة أبلغ من عبارة، ورب لحظ أنم من لفظ، ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، لأن الإنسان قد يسيطر على كلماته فيكذب بها محاولاً إخفاء حقائق أفكاره ومشاعره، إلا أنه طالما يفشل في السيطرة على أعضاء جسمه وحركات عينيه وأطراف يديه ورجليه واحمرار وجهه وانقباض أساريره أو غير ذلك من إشارات الجسم وعلاماته والخَلْقية التي تظهر عليه بصورة عفوية ولا إرادية معبرة عن حالاته ومشاعره كلا بإشاراتها الشاهدة عليها والدالة إليها دلالة قطعية لا يطرأ على تصديق المخاطب لها شك، وإن خالفها المتكلم بدلالات ألفاظه وكلماته .

ولعل من ينظر إلى مجريات الحديث بين المتخاطَبين، لا يملك أن يُنكر دور الجسد وإشاراته وحركاته وهيئاته في فهم كل منهما للآخر وخاصة ما تحمله حالات الوجه والعينين والصوت من دلالات وشواهد حال للمخاطَب تجعله في غنىً تام عن كلام مخاطِبه، وهذا ما نجده واضحًا في أمثال العرب مثل قولهم : رب حال أفصح من لسان([1])، والصبُّ تفضحه عيونه، وفي شعر بعضهم، مثل قول أحدهم :

لي من محبته شهودٌ أربع وشهود كل قضية اثنان

خفقانُ قلبي وارتعاد مفاصلي وصفارُ لوني واعتقال لساني

ومثل قول الآخر:([2])

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من العداوة أو وُدٍّ إذا كانا

وقول بعضهم :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنتُ أن الطرف قد قال مرحبا وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم([1])

([1]) – الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ١/ ٣١٤.

([2]) – ابن جني، الخصائص، ١/٢٤٦ –٢٤٧ .

وقال الآخر :

كلمته بجفونٍ غير ناطقــةٍ فكان من ردِّه ما قال حاجِبُه

وقال الفرزدق :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقَّفوا([٢])

إن هذه الشواهد وما أكثرَ مِثلَها في أمثال العرب وأشعارهم – لتدل على أن لإشارات الجسد وحركاته دورًا بارزًا في اللغة تعبيرًا وفهمًا، وأن ثمة مواقف تحسن فيها الإشارة ولا يحسن فيها الكلام، وأن ثمة معاني ومشاعر يستهجن المتكلمُ والمخاطبُ التعبيرَ عنها بالكلام، وفي الوقت الذي يقبل الخطاب فيها بالإشارة، مثل مواقف الحب ومقامات العُجْبِ ومكان التعليق الساخر والنقد . وهذا باب كبير للدراسة، لم يسمح لنا المقام الإيغال فيه، وأن ثمة أبوابًا دراسية تدور حول الإشارة ورمزيتها ودلالتها وارتباطها بثقافة الفرد والمجتمع وتطورها من مرحلة إلى أخرى وأنواعها من حيث المقبول منها والمحظور مثلها في ذلك مثل الكلمات، بالإضافة إلى هذا وذاك فإن ثمة أبوابًا دراسية أخرى تهتم بسيكولوجية الخطاب وأثر ذلك على إيثار المتكلم والمخاطب أحيانًا للإشارة دون الكلام، وارتباط ذلك بجنس المتكلم والمخاطب ومستواه الاجتماعي، إذ نجد المرأة الحسناء تستغني بدلها وشكلها وحركاتها عن كثير من الكلام على نحو ما نجده مثلاً في إيثار المرأة للقيام بالدعاية والإعلان([٣]).

أ–٢– سيميائية اللغة في ألفاظها

بعد أن أثبتنا سيميائية اللغة في إشاراتها وألحاظها، نركز الضوء على بيان مدى (سيميائية اللغة في ألفاظها)، وبعبارة أخرى فإننا نحلل الجانب اللفظي الذي يُعد إحدى وسائل البيان اللغوي الخمس التي أشار إليها الجاحظ؛ لنرى إلى أي مدى

([١]) – ابن رشيق، العمدة، ٣٠٩/١ ، وانظر : الجاحظ، البيان والتبيين، ٧٨/١ وفي رواية البيان جاءت الأبيات بقوله (إشارة محزون) .

([٢]) – ابن منظور، لسان العرب، ومأ .

([٣]) – انظر مثلاً : د . عبد الله محمد الغذامي، ثقافة الوهم، مقاربات حول المرأة والجسد واللغة ، المركز الثقافي العربي ، المغرب، ١٩٩٨ ، ٦٤ وما بعدها .

يعتمد هذا الجانب اللفظي في بنائه المؤسس على الكلمات والتراكيب والجمل والأساليب – على سيميائية كل من الكلمة المفردة والصورة البيانية .

وكلما تجاوز المتكلم في كلامه حد الإخبار والإعلام إلى هدف إقناع المخاطب والتأثير فيه، كانت الحاجة ماسة إلى استخدام الإشارات الجسمية ولذا فإن هذه الإشارات الجسمية تلعب دورًا تلقى أهميته حظًّا وافرًا في مباحث علم اللغة والاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا فضلا عن فن التمثيل الصامت Pantonume والخطابة والرقص – وهذا ما ستتعرض له الدراسة في مبحثها الخاص بالسيمياء وأبعاد المعنى .

وتأتي سيميائية ألفاظ اللغة في كونها إشارات ورموزًا على معانيها ودلالاتها سواء أكانت تصورات وأفكارًا في الذهن أم أشياء في الواقع الخارجي، فالألفاظ والكلمات لا معنى لها في حد ذاتها، وإنما تكتسب معانيها من دلالاتها على الأفكار ورمزيتها أو محاكاتها للأشياء الخارجية .

وهذه الإشارية أو السيميائية التي تمثل كنه الألفاظ اللغوية، صرَّح بها الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله : " اللغة تجري مجرى العلامات، ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه "([1]).

وألمح إلى هذا المعنى كذلك دي سوسير في نظريته عن اللغة ، ضمن دروسه التي ألقاها في جامعة جنيف سنة ١٨٠٧ ، قال : " إن علم اللغة جزء من علم كبير يسمى علم السيميولوجيا أو علم العلامات، فنظام الأصوات والكلمات لا قيمة لها إلا لما تصير علامات اعتباطية تمثل رموزًا ومؤشرات لتصورات ذهنية وفكرية في أذهان المتكلمين باللغة، ولذلك فاللغة أو الكلام نظام من العلامات مثل بعض الطقوس والعادات التي يمارسها المجتمع، إلا أن نظام اللغة من أعقد النظم الإشارية وأكثرها انتشارًا في نفس الوقت" ([2]).

فإذا كانت الألفاظ تُتَوَّل بالإشارة لكي تُفهم عن المتكلم ويتواصل بها مع مخاطبه، فهذا يؤكد لنا سيميائية اللغة في ألفاظها ومتن كلامها. وإذا كانت هذه

([1]) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨م، ٢٧٧.

([2]) انظر : جوناثان كلر في كتابه : دي سوسير ، ترجمة عز الدين إسماعيل ، ١٥٧ ، ١٥٨ .

الألفاظ والكلمات قد نشأت في أحضان اللغة بغرض الاستغناء بها عن الإشارة أو على الأقل بهدف التوسع في أدوات اللغة ووسائلها في الاتصال وتحقيق أهدافها؛ لما تتماز به الألفاظ عن سائر وسائل الاتصال بنصيب أوفر من التجرد والسرعة والسهولة والعمق في الاتصال والدلالة. فإن هذه الألفاظ نشأت مرتبطة بالإشارة، ونهضت مشدودة في دلالاتها وإشاراتها إلى أعضاء الجسم وعناصر الطبيعة وأحداث الواقع، فليس ثمة لفظ يُستدل به على معنى في اللغة والاتصال دون أن ينطوي على الإشارة إلى شيء في الواقع أو صورة من صوره أو حدث من أحداثه، فالألفاظ تخلو من الدلالة والاتصال ما لم تشر إلى شيء في الواقع أو صورة في ذهن المخاطب، فلا تأخذ الألفاظ مكانتها في اللغة والاتصال لمجرد أنها ألفاظ وكلمات بل لكونها إشارات على صور ومعان وأحداث في الواقع أو في ذهن المتكلمين باللغة .

فمهما استقلت الألفاظ في دلالاتها عن الإشارة باليد أو بغيرها، فإن المتكلم إذا هدف بكلامه حد الإقناع والتأثير في المخاطَب فإنه – إضافة إلى الإشارة بأعضاء جسمه – لا يستغني عن استخدام الألفاظ التي تشير بدلالاتها إلى صور وأحداث وهيئات، فنراه ينتقي في كلامه الألفاظ الحركية والكلمات الإشارية والتعبيرات التصويرية البيانية .

وإذا كانت قوة اللفظ في دلالته قد ارتبطت بمدى قوته ودقته في الإشارة إلى مدلوله وتصوير حدثه وتجسيد معناه – جاءت اللغة أو الجماعة اللغوية في مواضعتها على الألفاظ والكلمات بعشرات الأسماء والأفعال والتعبيرات الاصطلاحية المشتقة عن أعضاء الجسم وهيئاته وحركاته ومن محاكاتها أصوات الطبيعة وأحداثها .

فسبب حرص الجماعة اللغوية في ملاغاتها وتواصلها بالألفاظ والكلمات على الكلمات الإشارية والتعبيرات الحركية – اشتقت عشرات الأسماء والأفعال والصفات والتعبيرات الاصطلاحية من أعضاء الجسم وهيئاته وحركاته؛ فيصبح بذلك لجسم الإنسان وإشاراته دوران مهمان في اللغة والكلام ؛ الأول أشرنا إليه من قبل حيث يمتلك جسم الإنسان لغة غير لفظية Non – Verbal Language مفرداتها الإشارات والحركات والإيماءات والهيئات والعوارض والتغيرات الفسيولوجية التي

تظهر على العين والوجه والجبين والشفتين والأطراف، فتعكس مشاعر الإنسان وانفعالاته وأفكاره حتى قيل في أمثال العرب " رب حال أفصح من لسان "([1])، والدور الثاني الذي يمتلكه جسم الإنسان في ممارسة اللغة والكلام يتجلى في اشتقاق كثير من ألفاظ اللغة وتعبيراتها الاصطلاحية من أعضاء الجسم، فضلا عن عودة كثير من أساليب اللغة وصورها البيانية إلى هيئات الجسم وحركات أعضائه، وبذلك يتأكد لدينا المبدأ الذي تعمل الدراسة على تجليته بالأمثلة والشواهد، وهو سيميائية اللغة في ألحاظها وألفاظها .

ومن الأمثلة والشواهد اللفظية التي اشتُقَّت من أعضاء جسم الإنسان ما أشار إليه وأوضحه بالتفصيل الدكتور كريم زكي حسام الدين، حيث قال :" إن الجماعة العربية قد اشتقت وصاغت من أعضاء الجسم كثيرًا من الأفعال والأسماء والتعبيرات الاصطلاحية Idiomatic Expressions التي أصبحت من متن اللغة Languageفقالت : غليظ القلب للفَظّ، وقلب الشيء : لبُّه، وأسود الكبد : للعدو، والمكابدة : للمعاناة والشدة، وبطن الشيء : جوفه، وظهره : ما ارتفع منه، وبطُن الأمر: خفي، وظهر: بان، والظهور : القوة والظفر، وظهر عليه: غلبه، والظهير: المعاون، وجعله وراء ظهره : أهمله، ووجه الشيء : أوله، وفلان ذو وجهين : منافق، وتوجه للمكان : قصده، عين الشيء : حقيقته وأصله، والعين : الرقيب، والعين : ينبوع الماء، والعين والجمع أعيان: أشراف الناس ... وفم الشيء : مقدمته وكذلك أنفه، والمشافهة : الكلام المنطوق في مقابل المكتوب ... ورأس الشيء : أعلاه، ورأس القوم : سيدهم، ورَأَسَهم : قادهم، والعنق : أول كل شيء، وعانقه : استلمه بجسمه حبًّا ومودة، يد الشيء : مقبضه، وأيده : قوّاه، وكذلك عضده وساعده وتكاتف معه، وضرب على يده : منعه، وفتّ في عضده : ثبّطه، ويدُ الرجُل : جماعته وأنصاره ..."([2])

---

(١) – الميداني، مجمع الأمثال ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ٢ / ٧١ .

([2]) – د . كريم زكي حسام الدين ، الإشارات الجسمية ، ١٥ ، ١٦ .

وهكذا كثرت الكلمات والتعبيرات المشتقة من أعضاء جسم الإنسان حتى شملت هذه المشتقات معظم أعضاء الجسم الثابتة منها، مثل : العظم واللحم والقلب والكبد والأحشاء والقفا والبطن والظهر والصدر والأنف والأذن، والمتحركة مثل : الوجه وما فيه من العين والحاجبين والفم والشفتين، واليد وأجزائها : الذراع والساق والعضد والكف والأصابع، والرِجْل وأجزائها : الساق والقدم والعقب ([1]).

ولم تتوقف سيميائية اللغة في ألفاظها عند اشتقاق بعض الألفاظ من أعضاء جسم الإنسان بل امتدت هذه السيميائية اللفظية إلى وصف حركات الجسم وهيئاته وصوره في التعبير بها عن انفعالات الإنسان وأفكاره، وعن حالات الأشياء وأوصافها، فكان ثمة تعبيرات الحركات الجسمية والصور البيانية اللفظية من مثل قولهم : ارتعدت فرائصه، اقشعر بدنه، وقف شعر رأسه، اصطكت أسنانه، تجمد من الخوف، انتفخت أوداجه، شمخ بأنفه، عض أنامله، ومن مثل : يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى، زاغ بصره، كاد قلبه يقع في رجله، طار عقله، إن هذا الأمر لا أهضمه، وشبعت من هذا الكلام، ولم يتذوق هذا الشيء كما أنه تقزز منه، جعل أصبعه في أذنه، ووضع يده على عينيه، وأعرض بجانبه، وشمر عن ساقه، وقلب كفّيه، ... وغير ذلك كثير في لغتنا من صور جسدية وتعابير حركية جسمية صاغتها الجماعة اللغوية من حركات أعضاء الجسم وهيئاته وصوره، ولطالما استخدمها كل متكلم في كلامه، سواء أراد الوصف الدقيق أم أراد إقناع المخاطب أو التأثير فيه.

هذا، وقد اتبع القرآن الكريم سَنَنَ العربية في استخدام الأوصاف الجسمية والتعبيرات الاصطلاحية أو الصور الجسدية في دقة الوصف وبراعة التصوير، على نحو ما نجده في قوله تعالى:(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) ([2]) وقوله تعالى:(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)([3]) وقوله تعالى:(هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ

([1]) – انظر : د . كريم زكي حسام الدين ، الإشارات الجسمية ١٥ ، ١٤٥ وما بعدها .

([2]) الكهف ٤٢ .

([3]) الفرقان٢٧.

آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)([1]) وقوله تعالى:(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)([2]) وقوله تعالى:(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)([3]).

هذه الآيات القرآنية بعض قليل من جمع كثير يدلل بوضوح على أن القرآن الكريم آثر في مواضع كثيرة تحقيقًا لدقة الوصف وبلاغة التصوير – أن ينقل لنا حالة الموصوف قبل قوله، وإشاراته قبل كلماته، وانفعالات جسده قبل خطرات لسانه، كما هو واضح في الآية الأولى والثانية والخامسة، وقد يكتفي القرآن الكريم بنقل حالة الموصوف وإشاراته دون ذكر كلامه على نحو ما هو جلي في الآية الثالثة والرابعة من الآيات السابقة؛ فرب حال أبلغ من مقال .

وفي تفسير بعض هذه الآيات ذكر لنا أبو حيان مُبينًا أن ثمة هيئات للبدن وحركاتٍ ببعض أعضائه تتبع هيئات النفس وانفعالاتها، حيث قال في تفسير آية آل عمران السابقة (وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) قال:" يوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان والإبهام، وهذا العض بالأسنان وهي هيئة في بدن الإنسان تتبع هيئة النفس الغاضبة، كما أن ضرب اليد على اليد يتبع هيئة النفس المتلهفة على فائت قريب الفوت، وكما أن قرع السن هيئة تتبع هيئة النفس النادمة، إلى غير ذلك من عد الحصى، والخط في الأرض للمهموم ونحوه "([4]).

أضف إلى ذلك أن هذا السنن في وصف حالات البدن استدلالاً على وصف حالات النفس ليس خاصًا بلغة العرب، فقد ترددت في غير لغة هذه الألفاظ أو الأوصاف الجسمية والتعبيرات الاصطلاحية أو الصور الجسدية، على نحو ما ذكر لنا د. كريم زكي حسام الدين أمثلة من الإنجليزية والفرنسية والألمانية، من مثل

([1]) آل عمران ١١٩.

([2]) نوح ٧.

([3]) الذاريات ٢٩ .

([4]) أبو حيان ، البحر المحيط ، الرياض ، ١٩٧٠ ، ٣ / ٤١ .

استخدام الإنجليزية لكلمة القلب (Heart) في التعبير بها عن معاني : الذعر، وفقدان الرغبة، وفقدان الحماسة كما في قولهم :

تملكه الخوف . To have heart in his mouth

فقد الرغبة لهذا الشيء . He has no heart for this

فقد حماسته (١) . To lose his heart

ولعل السبب في تجذر هذه الألفاظ الإشارية والصور الجسدية في معظم اللغات هو أن اللغة الإنسانية المنطوقة Spoken Language تعود في الأصل إلى الإشارات الجسمية التي تتمثل في تعبيرات الوجه وإشارات أعضاء الجسم وحركاته؛ لأن استخدام الإنسان للألفاظ في التعبير والاتصال جاء امتدادًا وترجمة لإشاراته وحركاته الجسمية المعبرة عن رغباته وانفعالاته، وكأن عملية الاتصال تعتمد في الأساس على نظام من إشارات الجسم وحركاته System of Gestural Signs تسانده بعض الأصوات والألفاظ المحاكية، ثم تطورت عملية الاتصال اللغوي بتطور الإنسان في استخدامه لنظام الألفاظ واللغة المنطوقة، فاطردت الألفاظ والدلالات واسْتُغلت الكفاءة اللغوية اللفظية فاتسعت الألفاظ والاشتقاقات وتعددت الدلالات، فاعتمد الإنسان في اتصاله على النظامين معًا : الإشاري واللفظي؛ ودليل هذا ما نجده ممارسًا بيننا الآن في اتصالنا اللغوي، وما نجده في اكتساب الطفل للغة وارتقائها عنده، حيث يبدأ الطفل اتصاله بأمه ومَنْ حوله بتعبيرات الوجه وحركات الجسم، وشيئًا فشيئًا يعتمد الطفل في اتصاله على الألفاظ إلى جانب الإشارات والحركات، فيمزج بينهما، وذلك في كل عملية اتصال ينشئها أو يشارك فيها مع الآخرين .

ومعنى ذلك أن اللغة المنطوقة نشأت في أحضان اللغة الإشارية فتأثرت بها وامتزجت معها، وصارت ثمة ألفاظ إشارية وكلمات حركية وصور لفظية جسدية وواقعية لطالما آثر المخاطِبُ والمخاطَبُ التحدث والتخاطب بها؛ لما لها من دقة في الوصف وبلاغة في التعبير والإقناع والتأثير. وهذا ما يزكي الجانب السيميائي في

---

(١) – انظر : د . كريم زكي حسام الدين ، الإشارات الجسمية ، ١٤٧ .

ألفاظ اللغة وكلماتها وأساليبها، سواء على مستوى التعبير (تحدثًا وكتابة) أم على مستوى التلقي (استماعًا وقراءة) .

فالمتحدث لا ينفك في حديثه مازجًا بين ألفاظه وإشارات يده ووجهه وحركات أعضائه وجسمه، فيتحول في خطابه من اللفظ إلى الإشارة ومن الإشارة إلى اللفظ ويوضح أحدهما بالآخر، ويراوح في ذلك، تجسيدًا للمعاني وإبانةً لأغراضه وقصوده، مثلما نجده في حديثه – ρ – :" أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين"([1])، حيث لم يتلفظ الرسول ρ بعبارة : السبابة والوسطى، الأمر الذي جعل راوي الحديث يقول : وأشار بأصبعيه : السبابة والوسطى وهذه الطريقة في الحديث لها معان بلاغية وتأثيرية سنتعرض لها بالتفصيل في المبحث الرابع من الدراسة .

والكاتب لا يستغني في كتابته عن استخدام الألفاظ الإشارية (ألفاظ الجسد والطبيعة) والكلمات الحركية (كلمات الأفعال الحركية) والصور اللفظية الجسدية والواقعية – إذا أراد دقة الوصف وجودة التعبير وقوة التأثير؛ لأن الإنسان عندما يكتب لينقل لنا موقفًا أو صورةً أو حدثًا أو حالةً أو قولاً أو خبرًا أو إحساسًا، فإنه لا يكتفي بمجرد ذكر هذا الموقف أو تلك الحالة أو ذاك القول ، بل يصف لنا بألفاظه وصوره اللفظية ملابسات الموقف ومداخلات الحالة ومسببات القول وتداولياته، وكل هذا لا يتحقق فقط باستخدامه الألفاظ التجريدية، بل لابد له من استخدام ألفاظ الجسد والطبيعة وأفعال الحركة والسلوك، والتعبيرات التصويرية التجسيدية، كل ذلك ليؤثر في القارئ ويعوضه عن حضوره الموقف وشهوده المقام ومعايشته الحدث وسماعه المخاطِب ورؤيته الصورة ومشاهدته الحالة .

وكذلك **المُخاطَب** (مستمعًا كان أم قارئًا) لا يمكنه فهم لغة المتكلم أو الكاتب إلا أن يربط بين اللفظ والإشارة، ويستدل من الألفاظ على ما تتضمنه من إشارات وحركات وأفعال وصور من الواقع، حتى إننا لنجد المستمع ليحب أن يشاهد المتكلم وحركاته وإشاراته عن مجرد استماع كلماته دون أن يراه، على نحو ما نجده في إيثارنا مشاهدة التلفاز عن استماعنا المذياع، كما إننا لنجد القارئ ليحب أن يقرأ

([1]) – البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم ٤٩٩٨ ، ٢٠٣٢/٥ .

الـنص مشـيرًا بيديـه رافعًـا صـوته بـالقراءة أحيانًـا، وكأنـه يتصـور حركـات الكـلام والإشارات الملازمة له عند إنشائه .

وبذلك نخلص بسيميائية ألفاظ اللغة، سواء في إشارتها ودلالتها على معانيها بصفة عامة، أم في رمزيتها إلى عناصر الواقع وإشارات المتكلم وحركاته بصفة خاصة، وذلك لأن ألفاظ اللغة نشأت أساسًا – على نحو ما أسلفنا – ممتزجة بإشارات الجسد وحركاته من ناحيةٍ، ومطبوعة بعناصر الطبيعة من ناحية أخرى .

ب – سيميائية الاتصال [لغته ووسيلته]

تأخذ عملية الاتصال Communication في العصر الحديث مكانة عظمى، فهي السمة الحضارية التي يتصف بها هذا العصر، فبها يتم التواصل والتفاهم ونقل الخبرات وحوار الحضارات . وإذا تعددت تعريفات الاتصال بتعدد المجالات المعرفية التي تتقاطع مع هذا العلم مثل المجال الاجتماعي والنفسي والإعلامي واللغوي وغيره – فإن أهم ما يميز الاتصال الجيد أن يصبح تفاعلا متبادلا بين مرسل ومستقبل حول رسالة محددة وعبر وسيلة اتصال مناسبة وفعالة ([1]).

والهدف من هذا المدخل عن الاتصال أن نبين أن عملية الاتصال لا تتم إلا من خلال عناصر أربعة وهي : مرسل ومستقبل ورسالة ووسيلة اتصال، ثم نركز الضوء على وسيلة الاتصال ولغته؛ لنوضح حميمية الصلة التي تربط بين اللغة الإنسانية ووسائلها من ألفاظ وإشارات وبين عملية الاتصال ووسائلها من ألفاظ وإشارات، وذلك إذا وسعنا مفهوم اللغة – على نحو ما ننتهج في هذه الدراسة – ليشمل كل ما يلاغي ويتواصل به الفرد مع نفسه أو مع مجتمعه ليعبر به عن أغراضه، وتشمل الألفاظ والإشارات والحركات .

ومعنى هذا أن نبين في هذا المبحث ما لم يكن مبيَّنًا من ذي قبل، وهو التقارب أو التشابه الشديد بين مفهوم اللغة Language ومفهوم الاتصال Communication لأنه إذا كانت اللغة تعني التلاغي والتبادل بين الأفراد عبر الألفاظ والإشارات والحركات والرموز، فإن الاتصال كذلك يعني التبادل والتفاعل

([1]) – انظر التعريفات المختلفة للاتصال : د : مدحت محمد أبو النصر ، لغة الجسم ١٧،١٨ .

بين الأفراد عبر الألفاظ والإشارات والحركات والرموز، لأن كلمة Communication تعود في الأصل إلى الفعل Communicate بمعنى : يشيع عن طريق المشاركة، أو تعود إلى الكلمة اللاتينية Communism وتعني Common أي مشترك أو عام([1])؛ ولعل في ذلك من التشابه ما لا يكاد يخفى .

ونحن إذ أثبتنا هذا التشابه بين الاتصال واللغة فيما يعتمدان عليه من وسائل تتمثل في الألفاظ وحركات الجسم وإشاراته وهيئاته، فإن الهدف من هذا الإثبات أن نؤكد أمرين في غاية الأهمية وهما :

الأمر الأول أن نؤكد سيميائية عملية الاتصال في لغتها ووسائلها لأن وسائل الاتصال مهما عددها الباحثون في علم الاتصال، فإنها تعود إلى اللغة في وسائلها: الألفاظ والإشارات والحركات والهيئات المتحركة والصامتة، وهي نفس الوسائل التي تعتمدها اللغة في تحققها وكلها وسائل تتصف بالسيميائية على نحو ما أثبتنا في المبحث السابق . أما ما ذكره بعض علماء الاتصال من وسائل مثل : التليفون المذياع والتلفاز والتلكس والفاكس والدوريات والإنترنت والحاسوب والعارضة الفوقية والداتاشو وغيرها([2])، فإن هذه الأجهزة والقنوات ليست وسائل حقيقية للاتصال بل هي أدوات وقنوات تفعّل عبرها وسيلة الاتصال ولغته سواء أكانت لفظية (مسموعة أو مقروءة أو مكتوبة) أم غير لفظية (إشارات وحركات وهيئات) ، وبذلك يتضح لدينا الفرق بين لغة الاتصال ووسائله اللفظية والإشارية وبين أدواته وأجهزته وقنواته المادية والآلية .

والأمر الثاني الذي نؤكده في هذا المبحث أن نبين مدى أهمية إدراك العلاقة القائمة بين اللغة عملية الاتصال، وذلك بالأخصّ عندما نريد أن نبني لأنفسنا نظريةً في الاتصال أو نظريةً في اللغة، أو نُفيد من هذه النظرية أو تلك في إقامة اتصال

([1]) – انظر : د . مدحت محمد أبو النصر ، لغة الجسم ، ١٧ .

([2]) – انظر من الباحثين الذين ذكروا بعض هذه الأدوات على أنها وسائل اتصال : د . مدحت محمد أبو النصر، لغة الجسم ، ٢٥ ، وانظر : عبد الحافظ محمد سلامة، وسائل الاتصال وأسسها النفسية والتربوية، دار الفكر ، الأردن ، ١٩٩٣ ، ١٨ .

فعَّال بين الفرد وذاته أو بين الفرد ومجتمعه أو بين مجتمعنا والمجتمعات الأخرى، أو في تحليل النصوص اللغوية وخاصة الدينية وإنزالها على الواقع الذي نعيشه .

ج – اللغة الاتصالية [العلاقة بين اللغة والاتصال]

تتجلى حميمية العلاقة بين اللغة والاتصال من كوننا لا نستطيع أن نبني نظرية للغة بعيدًا عن مفهوم الاتصال وعناصره ووسائله اللغوية، ولاسيما أن الاتصال يُعد على رأس أغراض اللغة وسر وجودها، لأن ما ذكره الباحثون من أغراض اللغة، مثل: التعبير والإعلام والإقناع وحفظ التراث وغير ذلك، يعود في الأساس إلى غرض ووظيفة واحدة وهي الاتصال بأنواعه سواء مع الذات أم مع المجتمع . كذلك الحال بالنسبة لعملية الاتصال، إذ لا يمكن أن نقيم عملية اتصال ناجحة وفعالة إلا بتفعيل كافة وسائل اللغة اللفظية وغير اللفظية في إقناع المخاطب والتأثير فيه؛ **ونخلص من ذلك بقاعدة مؤداها** : أن ليس ثمة اتصال فعّال بغير لغة بليغة، ولا لغة بليغة بغير اتصال فعّال؛ لأن الاتصال هو الوظيفة الأساسية للغة الإنسانية، واللغة الإنسانية لا يمكن لها أن تتحقق بعيدًا عن عناصر الاتصال الرئيسية من مرسل ومستقبل ورسالة، ولأن نجاح اللغة وجودتها متوقف على قدر ما تحققه من فعالية اتصال حول الموضوع أو الرسالة، وأن نجاح عملية الاتصال وفعاليتها متوقف على قدر ما يُحسنه طرفا الاتصال(المرسل والمستقبل) في استخدام الوسائل اللغوية : اللفظية والجسدية، لتجلية الرسالة الاتصالية وتحقيق الإقناع والتأثير بها .

ولعل أهم ما ينبه عليه الباحث في هذا المقام أن ثمة فرقًا شاسعًا بين اللغة في كونها تعبر عن مراد المتكلم دون إقناع المخاطب أو التأثير فيه، وهذه اللغة يسميها الباحث(اللغة التعبيرية أو المستوى التعبيري)؛ وبين اللغة في كونها تعبر عن مراد المتكلم وتقنع المخاطب وتؤثر فيه عاطفيًّا وفكريًّا وسلوكيًّا، وهذه اللغة أو هذا المستوى من اللغة يسميه الباحث (اللغة الاتصالية أو التأثيرية أو المستوى التأثيري). وهذا المستوى الأخير من اللغة هو الذي عليه مدار البحث والكلام، وفيه تتفاوت القدرات، ويتدرج فيه المتكلمون درجات، ولا يمكننا الوصول إلى هذا المستوى دون إجادة استخدام الألفاظ وإشارات الجسم وحركاته وهيئاته، وغير ذلك من وسائل اللغة بالمفهوم الشامل لمصطلح اللغة الذي تتبناه هذه الدراسة وتدعو إليه .

وتُعد هذه اللغة الاتصالية أو التأثيرية اللغة التي تتجلى فيها علاقة اللغة بالاتصال؛ لأن الذي يجيد هذه اللغة يجيد فن استخدام ألفاظ اللغة وإشاراتها إلى جانب إجادته سائر مهارات الاتصال من اختيار الموضوع المناسب وتحديد الهدف والمعرفة بالمخاطب واختيار الزمان والمكان وقناة الاتصال المناسبة . فكثير مَن يتكلم، قليل من يقنعنا ويؤثر فينا بكلامه، وكثير مَنْ يمتلك موضوعات جيدة ومهمة، لكنه يفتقد البلاغة اللغوية والقدرة على استخدام إمكانات اللغة، وكثير مَنْ يمتلك القدرة اللغوية، والموضوعات الهمة لكنه يفتقد مهارات الاتصال، فيقف كلام هذا وذاك عند مجرد الإخبار والإعلام دون الإقناع والتأثير، فيفقد الكلام عندئذ أهم وظيفة له وهي الاتصال سواء بالإقناع أم بالتأثير وتغيير شعور المخاطب أو المستقبل أو فكره أو فعله وسلوكه .

وهذه اللغة التي ينبه عليها الباحث هي التي عليها مدار البحوث والنظريات ومناهج التحليل اللغوي الحديثة مثل : نظرية أفعال الكلام Speech Acts ومنهج تداوليات الخطاب Pragmatics أو البراجماتية، وسواء هذه النظرية أم ذاك المنهج يركز على كون اللغة مشهدًا لغويًّا وأفعالاً وأحداثًا يشارك فيها متكلم ومخاطب وجمهور ومؤثرات من الزمان والمكان، وأن قيمة الكلمة فيما تتضمنه من فعل أو أمر أو نهي أو غير ذلك من الأغراض الإنجازية لها ([1]).

وهذه العلاقة التي أثبتتها الدراسة بين اللغة والاتصال قد أدرك قيمتها للمجالين : اللغوي والاتصالي بعض الباحثين مثل العالم الروسي جاكبسون كما هو واضح في كتابه : " اللسانيات ونظرية التواصل، وفي أنموذجه ومخططه لعملية الاتصال الذي يبنيه على ستة عناصر وست وظائف أساسية، حيث يربط بين عنصر الإرسالية أو الرسالة اللغوية وبين عنصر السياق الذي يُعد مرجعًا له وظيفة إحالية تفهم على ضوئها الإرسالية أو الرسالة اللغوية ([2]).

([1]) – انظر : د . مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت ، ٢٠٠٥ ، ٩ – ١١ ، ٤٠ – ٤٤ .

([2]) – انظر : جاكبسون : اللسانيات ونظرية التواصل، نقلاً عن : د . نزار التجديتي، مفهوم التلقي من خلال الأنموذج التواصلي لنظرية زيجفريد شميث ، مجلة عالم الفكر، الكويت ، مج ٤ ، ٢٠٠٧، ٣٠٤ .

وقد أدرك هذه العلاقة وأهميتها في دراسة اللسانيات وعلوم الاجتماع والاتصال العالم زيجفريد شميث Siegfried J . Schmidt الذي عمل أستاذًا بالجامعة الألمانية بيلفيد Bielefeld ثم جامعة زيجن Siegen ، وذلك في سبعينات القرن العشرين عندما جاء بمؤلفاته حول " نحو النص " و " لسانيات التواصل " و " علم الأدب " و " الجماليات الثقافية " ... حيث أخذ زيجفريد يعدّل من اتجاه (اللسانيات النصّية Textlinguistic)، ويضيف إلى لسانياتها البنيوية والتحويلية لسانيات أخرى من منظور تداولي في تحليل النص أطلق عليها (لسانيات التواصل) حيث ينظر للنص من منظور تداولي يؤكد فيه على العلاقة الحميمة التي تربط النص اللغوي بالسياق (ليس السياق اللغوي أو المقامي الذي يعتمده أصحاب اللسانيات التقليدية) بل السباق الثقافي والاجتماعي الذي يمثل (الوضعية التواصلية) العامة التي يُنتج ويُتلقى داخلها النص – ثم أضاف أن حاجتنا إلى معرفة الوضعية التواصلية أو التداولية عند تحليل النص، تختلف باختلاف نوع النص والغرض منه، فهناك نص إخباري وصفي، وآخر توجيهي حجاجي وثالث أدبي تخييلي جمالي غير مباشر، يعد أكثر هذه النصوص حاجة لمعرفة الوضعية التواصلية عند تحليله ([1]).

ولم يَغب عن الباحثين العرب إدراك هذه العلاقة بين اللغة الإنسانية ونظرية التواصل، فقد أدرك كل من الدكتور كريم زكي حسام الدين والدكتور مدحت محمد أبي النصر هذه العلاقة في وجه من وجوهها المتمثل في دور الإشارات الجسمية أو لغة الجسم في التواصل، على نحو ما يتضح من عنوان كتابيهما : الإشارات الجسمية دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، ولغة الجسم دراسة في نظرية الاتصال الإنساني غير اللفظي. وقد أدرك بعض آخر من الباحثين العرب هذه العلاقة في أتم صورها عندما وسع أحدهم مفهوم الخطاب ليشمل " الكلام أو الجملة وما يلزمهما من أحوال لا تنفك عنهما "([2]) وأنه لا يمكن فهمه أو تحليله

([1]) – انظر : د . نزار التجديتي ، مفهوم لتلقي من خلال الأنموذج التواصلي لنظرية زيجفريد شميث ، ٢٩٣ – ٣٢٩ .

([2]) – د . صائل رشدي شديد، عناصر تحقيق الدلالة في العربية، الأهلية للنشر، الأردن، ٢٠٠٤م ، ١٧١ .

بشكل يكشف عن مقاصده إلا أن يراعى في التحليل هذه اللوازم أجمع . كما قاس الثاني مفهوم الخطاب على مفهوم الاتصال وبالتالي لا يمكن فهمه وتحليله إلا في إطار مراعاة عناصر التخاطب أجمع وعلى رأسها الإشارات التي لا يكتمل بيان الخطاب إلا بها ([1]). ووسع الثالث مفهوم [الخطاب] عن المعنى النحوي الخاص بضمائر المخاطب، وعن المعنى البلاغي الخاص بالأمر والنهي والجمل الإنشائية في مقابل الجمل الخبرية – إلى كل ما يُعبر به عن معنى أو غرض من لفظ أو إشارة أو هيئة أو رسم أو موسيقا أو حركة أو إجراء"([2]) فيشمل اللغة المنطوقة وإشارات الجسد وحركاته وهيئاته وسائر ما نعتبر منه عبرة ونستدل منه على معنى؛ فيصبح بذلك النص اللغوي خطابًا ورسالة اتصالية تفهم في إطار مستلزمات الخطاب وأطراف الحوار وعناصر الاتصال، فيتحد عندنا أو يكاد – مفهوم النصّ أو الخطاب اللغوي مع مفهوم الاتصال، لأن النص اللغوي (ولو كان جملة أو عبارة) هو نص في حوار له أطرافه من متكلم ومخاطب وقصد ورسالة وسياق ومقام وزمان ومكان، وتلك هي نفس العناصر التي تقوم عليها أية عملية اتصال .

ومن ثم لا أستنكر تعريف اللغة بأنها " وسيلة للاتصال بين البشر " على نحو ما استنكر الدكتور نايف خرما بقوله : " ليس تعريفًا دقيقًا تمامًا " وحجته أن ثمة وسائل اتصال أخرى مثل ردود الفعل العفوية كاحمرار الوجه خجلاً وارتعاد الأطراف خوفًا وفزعًا ، ومثل الرسومات، والنقود، والأعداد والموسيقا، والإشارات الجسمية ، ثم يضيف الدكتور نايف أن الاتصال ليس هو الوظيفة الوحيدة للغة، فثم – على حد تعبيره – وظيفة قومية، وأخرى روحية، وثالثة إنجازية([3]).

والحق أن الحجج التي ذكرها الدكتور نايف خرما يستنكر بها كون اللغة وسيلة الاتصال بين البشر– مردود عليها من غير جهة، إحداها جهة الدكتور نايف نفسه؛

([1]) – انظر : د . جمعة سيد يوسف ، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ع ١٤٥ ، يناير ١٩٩٠، ٣١.

([2])– انظر : د . سمير شريف استيتيّة، اللغة وسيكولوجية الخطاب بين البلاغة والرسم الساخر ، اللجنة الوطنية العليا ، الأردن ، ٢٠٠٢ ، ١٥ – ١٦ .

([3]) – د. نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد سبتمبر ١٩٧٨، ٣٠ .

عندما يعاود الدكتور نايف القول في نفس الموضع بأنه: " على الرغم من تعدد الوظائف التي تؤديها اللغة، تبقى وظيفتها كوسيلة للاتصال بين البشر أهم تلك الوظائف جميعًا، ونحن لو درسنا كلا من تلك الوظائف الأخرى التي ذكرناها قبل قليل، لوجدنا في كل منها تقريبًا أحد الجوانب التي لها علاقة بالاتصال "([1]) ومعنى هذا أنه يقرر بأن وظيفة اللغة هي الاتصال وإن تعددت جوانبه . أما ما ذكره الدكتور نايف بأن ثمة وسائل اتصال أخرى بين البشر غير اللغة، مثل : الإشارات الجسمية المقصودة والعفوية، والرسومات، والأعداد وغيرها – فالرد على قوله أن كل هذه الوسائل وسائل لغوية غير لفظية، بالمفهوم الواسع لمصطلح لغة الذي أصبح يُعنى به الآن : مجموعة الرموز والإشارات اللفظية وغير اللفظية التي يتم التواصل بها . وهذا ما تسعى إلى إقراره هذه الدراسة .

ثالثًا السيمياء وأبعاد المعنى :

إن قيمة أية دراسة فيما تحققه من فائدة؛ ولذا تحاول هذه الدراسة أن تتفرد بمثل هذا المبحث الذي تبرز فيه أهمية العناصر السيميائية – التي وضحتْها في المبحث السابق – للمتكلم في تعبيره عن مشاعره وأفكاره وتحقيق أغراضه وقصوده من المخاطَب والتأثير فيه، وللمخاطَب في فهمه لأغراض الكلام وقصود المتكلم، فضلاً عن أهمية هذه العناصر في تحليل الخطاب، وممارسة مهارات الاتصال .

ولمعالجة أهمية السيميائيات اللغوية لكل من المتكلم والكلام والمخاطَب ينقسم هذا المبحث على ثلاث نقاط : وهي :

أ– السيمياء وقصود المتكلم ب – السيمياء قرينة لفهم المعنى ومقاصد الكلام ج – السيمياء ومهارات الاتصال

ونوضح هذه النقاط فيما يلي :

أ – السيمياء وقصود المتكلم

لا أحد يُنكر أهمية الإشارات بالنسبة له إذا أراد أن يتكلم عن شيء أو يعبر عن أفكاره أو مشاعره، لأن من ينظر إلى واقع عملية الكلام، يجدها عملية تتفعل لها

([1]) – د. نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ٣١ .

أعضاء جسم الإنسان وخاصة الوجه والعينين واليدين قبل أن ينفعل لها اللسان، وهذه الممارسة العضوية اللسانية للغة والكلام يزاولها الإنسان من الطفولة إلى الكهولة ما دامت حاجته للغة والاتصال .

ومما يزيد هذه الممارسة السيميائية أهميةً لدى المتكلم أنها ممارسة فطرية ومشتركة وعامة في كثير من حالاتها، فهي عامة بين بني الإنسان على امتداد الزمان والمكان، ومشتركة بين الإنسان والحيوان، وفطرية جُبل عليها الإنسان والحيوان فيما يخص التعبير عن مشاعر الرضا والغضب على نحو ما أشار داروين Darwin في كتابه " التعبير عن العواطف The Expression of the Emotions .

ومن مظاهر السيميائية في ممارسة المتكلم للغة والاتصال أنها قد تغنيه عن الكلمات وتنوب عنها؛ لأن ثمة تلازمًا كبيرًا بين حالات الإنسان الذهنية والنفسية والعصبية وكل من إشارات وجهه وعينيه وإشارات رأسه ويديه ونبرات صوته وهيئة جسمه ولون بشرته، حتى إن المخاطب في حواره مع المخاطَب، قد يستغني عن الكلمات بأيّ من هذه الإشارات في التعبير له عن رأي أو موافقته أو رفضه لفعل أو قول قد صدر عنه؛ وخاصة في مواقف الإيحاء بالمعنى وتجنب الحرج الاجتماعي من استخدام كلمات التوجيه أو النقد المباشر بل ثمة من المواقف الاتصالية ما لا تصلح فيها اللغة اللفظية وتنوب فيها الإشارات مناب الكلمات منابة تامة مثل التواصل مع الصم البكم، وثمة من المواقف ما تصبح فيها الإشارة أبلغ من اللفظ، وفي ذلك يقول الجاحظ :" وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس" (١).

فالإنسان طفلاً يبدأ أُولى تعبيراته عن مشاعره وحاجاته بالصُراخ وبعض الإشارات الجسمية التي تعتبر – على حد تعبير داروين – في أول الأمر أفعالاً انعكاسية لحاجات فطرية أولية، ثم تتحول تدريجيًّا بمبدأ العادات النافعة وبتأثير الفعْل

---

(١) – الجاحظ ، البيان ، ٢ / ١١٧ .

الشرطي إلى إشارات ذات دلالات مختلفة([1])، وهكذا يتدرج الطفل في النمو وتكتمل قدرته على الكلام، إلا أنه لا يزال يجد نفسه في حاجة إلى استخدام الإشارات والحركات الفطرية والمكتسبة في التعبير عن مراده أو التأثير في مخاطبه .

ومن الإشارات التي يمارسها الإنسان تعبيرًا عن مشاعره، على سبيل المثال لا الحصر، احمرار لون البشرة دلالة على الخجل، واصفرارها دلالة على الخوف أو الإعياء، وتقطيب ما بين الحاجبين دلالة على الغضب، وانفتاح أسارير الوجه دلالة على الرضا، والعض على الأصابع دلالة على الندم ... وغير ذلك من إشارات الجسم وحركاته مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الإشارات تختلف عن الكلمات في كون بعضها عامًا في دلالته، وتتفق مع الكلمات في كون بعضها مختلفًا باختلاف المجتمعات في التواضع والاستعمال .

ومن مظاهر تجلي السيميائية في لغة المتكلم واتصاله أنه يستخدمها ملازمة لكلامه، لأنها تساعده على التعبير عن أفكاره ومشاعره، وكأن المتكلم يجد نفسه في حاجة ملحة إلى استخدام إشاراته يده ورأسه وحركاته جسمه عندما يعبر عن كوامن مشاعره وبنات أفكاره وخاصة في حالات الانفعال، حتى صار من الطبيعي أن يأتي المتكلم بهذه الإشارات في تعبيره وكلامه، ومن غير الطبيعي سواء للمتكلم أم للمخاطب أن يعبر المتكلم عن قصوده مرسَلَ اليدين شاخص الرأس والعينين . وهذا ما أشار إليه العالم الفرنسي فندريس معبرًا عن الدور الذي تقوم به الإشارات الجسمية في اللغة والاتصال : بأنها تساعد الفكر على الانطلاق، فاليد تمتد وتنكمش كما لو كانت تغوص في أعماق الضمير لتجلب الفكرة، تعجنها وتصقلها بإعطائها الشكل المناسب ([2]).

ومن مظاهر السيميائية في لغة المتكلم ووظائفها المهمة في تعبيره إكمال المعنى وتوضيحه وتأكيده بتمثيله وتجسيده، فهذه الأصوات والإشارات والحركات والهيئات التي يمارسها المتكلم في كلامه تساعده على إكمال المعنى وتوضيحه

([1]) Darwin , The Expression of the Emotions , Chicago , 1965 , p . 29 .

([2]) Vendryes : Language Oral et Language Gerstes , p . 13

نفلاً عن : د . كريم زكي حسام الدين ، الإشارات الجسمية ١٠٥ – ١٠٦ .

وتجسيده، فالمتكلم أحيانًا لا تُسعفه كلماته للتعبير، ولا يغنيه معجمه اللفظي والأسلوبي في فصاحته عن قصده، فيضطر إلى أن يمثل بيده في الهواء أو يخط بأصبعه في التراب أو بقلمه على الورقة أو يشير بأصابعه عادًّا أو يُشيح بها متوعدًا . فكثيرًا ما تعجز الكلمات عن التعبير وخاصة في انفعالات الغضب والسرور، وفي التحدث مع قوم لم أتقن لغتهم، فتأتي الإشارة لتعوّض ما في كلامي ولغتي من نقص، وتوضح ما فيه من لبس، أو تزيد وضوحه تأكيدًا، وهذا ما صرح به الجاحظ في إدراكه العلاقة بين اللفظ والإشارة بقوله : " اللفظ والإشارة شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه "([1]).

ب – السيمياء قرينة لفهم المعنى ومقاصد الكلام

كثيرًا ما تلتبس علينا مقاصد الكلام، أو تتشاكل علينا عبارة المتكلم، أن تتعدد أوجه المعنى وأغراض الأسلوب، أو يحاول المتكلم – في حالة كذبه – أن يخفي بعبارته ما لا يريد أن يُطلع عليه المخاطب، فعندئذ ليس أمام المخاطَب – لكي يفهم لغة المتكلم وحقيقة كلامه ومقاصده ومعنى خاص الخاص ويتحدد عنده وجه المعنى وغرض الأسلوب – إلا أن يستعين بمقام الكلام وهيئة المتكلم وحركات يديه وعلامات وجهه وإشارات عينيه . ويمكن أن نذكر الأمثلة والشواهد التي تبرُز فيها إشاراتُ المتكلم وحركاته قرينة حال وشاهد مقام، سواء على توضيح معنى الكلام وتأكيده، أم على إزالة لبسه وتحديد معناه وبيان مقاصده، وذلك على النحو الآتي.

تبرز أهمية الإشارات الجسمية في كونها قرينة حال وشاهد مقام يزيل لبس العبارة وغموض الكلام، ويبيّن معناه ويحدد مقاصده .

وهذه الأهمية للإشارات أدركها العلامة ابن جني ٣٩٢ هـ تحت ما أسماه في خصائصه " حكاية الحال " ، واستشهد عليها بحكاية نعيم بن الحارث عن زوجته التي (صكت وجهها) تعبيرًا عن تعاظم الإنكار والتعجب الذي أصابها عندما رأته متقاعسًا بالرحى، حيث قال نعيم :

تقول – وصكت وجهها بيمينها – أبعلي هذا بالرحى المتقاعسُ !

([1]) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ١/ ٧٨ .

وعلق عليه ابن جني بقوله :" فلو قال حاكيًا عنها : أبعلي هذا بالرحى المتقاعس من غير أن يذكر صك الوجه – لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة، لكنه لما حكى الحال فقال : (وصكت وجهها) عُلم بذلك قوة إنكارها، وتعاظم الصورة لها، هذا ما أنك سامع لحكاية الحال، غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف. ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين . وقد قيل (ليس المخبرُ كالمعاين) ... وليست كل حكاية تُروى لنا، ولا كل خبر يُنقل إلينا يُشفع به شرح الأحوال التابعة له المقترنة به . نعم ولو نُقلت إلينا لم تُفِدْ بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها " ([1]).

فابن جني هنا يمتدح في ناقل الخبر أن يذكر لنا الخبر أو القول مصحوبًا بإشارات المتكلم وحركاته التي تلازم كلامه، كما امتدح نعيمًا بن الحارث قائل البيت الشعري السابق؛ لأن ابن جني في تعليقه يقسم إدراك الخبر والقول الذي نسمعه وفهمنا لمعانيه ومقاصد متكلمه – على ثلاث مراتب، بحسب حضورنا للمشهد اللغوي أو نقله إلينا، وهذه المراتب كالتالي : أعلاها حضور المشهد اللغوي الذي قيل فيه القول ومعاينة كل لوازم القول وتداوليات الخطاب، وأوسطها سماعنا بالقول مصحوبًا بإشارات القائل وحركاته، وأدناها في فهم الكلام ومقاصده سماعنا بقول القائل فقط دون المعرفة بإشاراته وحركاته التي لازمته عند القول .

ولهذا استنكر ابن جني على الشاعر : الوليد بن عقبة بن أبي معيط أنه نقل لنا في بيت من الشعر حكاية قول لم يعرِّفنا شيئًا عن حال القائل أو إشاراته أو حركاته وتصرفاته التي كانت تلازمه عند القول، وذلك في قول الوليد للمرأة التي كانت تقود البعير :

قلنا لها قفي لنا قالت قاف لا تحسبينا قد نسينا الإيجاف.

يقول ابن جني معلقًا :" لو نقل إلينا هذا الشاعر شيئًا من جملة الحال ؛ فقال مع قوله (قالت قاف) (وأمسكت بزمام بعيرها) أو(عاجته علينا) ، لكان أبين لما كانوا عليه، وأدل على أنها أرادت : وقفتُ أو توقفتُ، دون أن يُظن أنها أرادت : قفي

([1]) – ابن جني ، الخصائص ، ١ / ٢٤٥– ٢٤٦ .

لنا ! أي يقول لي : قفي لنا ! متعجبة منه، وهو إذا شاهدها وقد وقفتْ علم أن قولها (قاف) إجابةٌ له، لا ردّ لقوله وتعجّبٌ منه في قوله : قفي لنا."([1])

فابن جني يرد اللبس والإبهام الذي يشوب جواب المرأة وردها بقولها (قاف)، إذ لم يتضح قصدها من الرد أهو استجابة أم تعجب – يرده إلى أننا لم نشاهد ولم يُنقل إلينا شيء من إشارات المرأة وحركاتها المصاحبة لجوابها (قاف) والدالة على رغبتها واستجابتها للأمر أو تعجبها واستنكارها له . ثم يتوقع ابن جني أن المرأة عندما قالت (قاف) استجابةً للطلب – أن تكون قد أخذت بزمام البعير تشده للوقوف وهو فعل أو حركة أو إشارة مصاحبة للكلام تؤكد قصد المرأة؛ لأنه " لا يخفى ما للإمساك بزمام البعير وشده من دلالة على الوقوف، فصلتها وثيقة، بل إن الإمساك بزمام البعير من أوضح وأبرز الأمارات دلالة على الرغبة في الوقوف، وهذه الصورة أشبه ما تكون في أيامنا برفع الكوابح اليدوية للسيارة وشدها للدلالة على وقوفها وضمان عدم تحركها. وابن جني بناء على قوله يرى في إمساك زمام البعير وهو الحدث غير الكلامي الوثيق الصلة بكلامها قرينة يزول معها الإبهام ويتضح موقفها، إذ يدل بجلاء على استجابتها لا على تعجبها وإنكارها الذي قد يتبادر إلى الذهن من قولها : قاف " ([2])

ومن ثم يتبين لنا أهمية إشارات المتكلم وحركاته وهيئة جسمه لفهم مقاصد الكلام ودفع اللبس والإبهام عنه؛ لأن هذه الإشارات والأمارات والأحوال التي تظهر على المتكلم أثناء كلامه، هي " الأحوال الشاهدة بالقصود، بل الحالفة على ما في النفوس"([3]) حتى لو حلف حالف منهم على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة، لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقًا فيه، غير متهم الرأي والنحيزة والعقل ."([4]) وبذلك فلا غرْوَ أن تأخذ الإشارات الجسمية مكانتها في المناهج الحديثة لتحليل النص مثل : تداوليات الخطاب عند كل من فان دايك وبراون ويول ، والسيميائية

([1]) – ابن جني ، الخصائص ، ١ / ٢٤٦ .

([2]) – د . عبد الكريم مجاهد ، الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء ، الأردن ، ١٩٨٥ ، ١٦٢ .

([3]) – ابن جني ، الخصائص ، ١ / ٢٤٤ .

([4]) – ابن جني ، الخصائص ، ١ / ٢٤٨.

عند أمبرتو إيكو، ولسانيات التواصل عند زيجفريد شميث، على نحو ما أوضحنا في المبحث الخاص بتطور السيميائية، والمبحث الخاص باللغة الاتصالية .

كما تبرز أهمية الإشارات الجسمية في كونها توضح معنى الكلام وتقسمه وتصوره وتؤكده في نفس المخاطب، حتى يصير للمعنى المجرد الذي فهم من كلام المتكلم صورة وقرينة إشارية أو حركية أو سلوكية ربما تُنسى الكلمات نفسها وتبقى طريقة المتكلم وإشاراته وحركاته التي لازمت كلامه مذكّرة بالمعنى ومنبهة على الغرض والقصد . وفي ذلك يقول الجاحظ :" والمغنّي قد يوقع بالقضيب على أوزان الأغاني، والمتكلم قد يشير بأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه، ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ وضروب المعاني، ولو قُبضت يده ومُنع حركة رأسه لذهب ثلثا كلامه . وقال عبد الملك بن مروان ، لو أُلقيت الخيرزانة من يدي لذهب شطر كلامي "([1])

ومعنى هذا أن معظم معاني المتكلم ومقاصده من كلامه مرتبط بإشاراته وحركاته، وأن المخاطَب إذا رام أن يفهم كلام المتكلم ومقاصده، عليه أن يتابع إشاراته وحركاته وأمارات وجهه وعينيه وأطرافه، فقد يفهم من إشارة أو أمارة ما لا يفهمه من الكلام، وقد يستنبط من أمارة ما تحاول أن تخفيه عبارة، فلطالما استمعنا إلى إنسان فصدقناه، ولآخر فكذبناه، ولا دليل لنا في تصديق هذا أو تكذيب ذاك إلا ما نلاحظه من علامات وجهه وإشارات عينيه وأمارات أطرافه ونبرات صوته وطريقة كلامه، وصدق المثل القائل: الصبُّ تفضحه عيونه، وصدق الشاعر في قوله:

العين تُبدي الذي في نفس صاحبها من العداوة أو ودٍّ إذا كانا

وقول أبي خراش الهُذلي:

رفوني*وقالوا يا خويلدُ لا تُرَعْ فقلتُ: وأنكرتُ الوجوه- هُمُ هُمُ([2])

([1]) – الجاحظ ، البيان ، ١ / ١١٩.

([2]) – ابن جني، الخصائص، ١/٢٤٦- ٢٤٧ .

*رَفَوني: سكَّنوني وطمأنوني، من الفعل (رفا) انظر: ابن منظور، لسان العرب، رفأ .

نضيف إلى ما سبق أن المخاطب قد يستدل بإشارة على معنى عبارة، لأن المتكلم يوزع حركاته على ضروب ألفاظه ومعانيه، فتكون الحركات للكلام المنطوق كعلامات الترقيم للكلام المكتوب .

فضلاً عن أن الإشارات الجسمية وحركات المتكلم تدعم المعاني وتوضح الدلالات بشيء من التصوير والتمثيل، فملاحظة المخاطب لحركات المتكلم بيديه أو بأصابعه أو برأسه أو بشيء خارجي يُمسك به، تجعله فاهمًا للمعنى متصوِّرًا له، الأمر الذي يزيد المعنى في نفسه ويؤكد حصوله بالصورة . بل جعل الجاحظ حسن الإشارة من البلاغة ومن تمام حسن البيان، إذ يقول :" قيل للهندي ما البلاغة؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة " ويقول في موضع آخر :" وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل والتفتل والتثني واستدعاء الشهوة "([1]).

ج – السيميائية ومهارات الاتصال

تتمثل مهارات الاتصال في: معرفة المرسِل لشخصية المستقبل والعكس، الإلمام الجيد بالموضوع أو رسالة الاتصال، امتلاك المهارات اللغوية اللفظية والجسدية المؤثرة، اختيار قناة الاتصال المناسبة، متابعة المرسِل المستقبل وملاحظة إشاراته وتصرفاته وردود أفعاله الناجمة عن مدى تفاعله معه أو مع الموضوع؛ بهدف الاستمرار في الاتصال أو تعديله بما يحقق جذب انتباه المرسل إليه وإقناعه والتأثير فيه ([2]).

والملاحظ أن معظم هذه المهارات لا تتم إلا من خلال إجادة لغة الاتصال تعبيرًا وفهمًا، سواء اللفظية منها أم الجسدية. فمعرفة شخصية المستقبل وامتلاك المؤثرات اللغوية اللفظية والجسدية، وشرح جزئيات الموضوع أو رسالة الاتصال وفهمها، ومتابعة المستقبل وملاحظة إشاراته وردود أفعاله بهدف تفعيله في عملية

([1]) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ١ / ٨٨ ، ٨٩ .

([2]) – للمزيد عن مهارات الاتصال ، يُرجع إلى : د . محروس محمد إبراهيم وآخرين، مهارات الاتصال بين النظرية والتطبيق، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، الإمارات ، ٢٠٠٣ ، ١٠ – ١٢ .

الاتصال ومحاولة إقناعه أو التأثير فيه ؛ كل هذا لا يتم إلا من خلال التمكُّن من لغة الاتصال تعبيرًا وفهمًا، ويمكن أن نوضح ذلك بالأمثلة فيما يلي .

ج –١– السيمياء ومعرفة شخصية المستقبل

إذا كانت المعرفة بشخصية المستقبل من مهارات الاتصال وتساعد المرسِل كثيرًا على اختصار الوقت والجهد في اختيار اللغة وقناة الاتصال وزمان الاتصال ومكانه المناسب لتفعيل عملية الاتصال – فإن أقرب وسيلة لمعرفة شخصية المستقبل من خلال الاستدلال بسماته الجسمية وهيئته الخارجية على حالاته النفسية والمزاجية؛ فإن ثمة تلازمًا واضحًا على نحو ما أشرنا في مفهوم علم الفراسة في المبحث الخاص بتطور السيميائية – بين شكل الجسم وشخصية صاحبه، وبين السمات الجسمية وبين حالات الإنسان النفسية والمزاجية والذهنية .

فمن واقع الاتصال بين أفراد المجتمع يتضح أن الجسم يخبرنا بمعلومات عن شخصية صاحبه وسماتها النفسية والمزاجية والخُلُقية، وذلك من خلال إشاراته وحركاته وهيئته، ومن خلال شكل ثيابه التي يرتديها ونمطها ولونها، ومن خلال نبرات صوته ولهجته . إننا نتعرف على نوع صاحب هذا الجسم ذكرًا كان أم أنثى ، وعمره، وموطن إقامته في الريف أم في المدينة، وطبقته الاجتماعية، وسماته الشخصية العامة مثل الهدوء والعصبية، الفطنة والغفلة، الرزانة والخفة والسآلة، الصدق والكذب، والتواضع والكبر، والعفة والفجر، الحياء والوقاحة؛ وبذلك يمكن أن نحدد علاقتنا بالشخص الآخر بناء على ما أخبرنا به جسمه وخَلْقه وصورته وهيئته وملابسه ونبرة صوته، فنقترب منه أو نبتعد، نحبه أو نكرهه، نتعامل معه أو نتجنبه . فقد نلتقي شخصًا لأول مرة فينطبع في نفوسنا شيء أو صورة عنه وعن شخصيته، ربما ننسى اسم هذا الشخص وصوته وكلماته، وتبقى هذه الصورة مطبوعة في أذهاننا ماثلة في خلدنا([1]).

ولعل السبب في ذلك واضح وهو أن جسم الإنسان يحمل نظامًا إشاريًّا في التواصل يخبرنا عن حال صاحبه وشخصيته، فبمجرد رؤيته إما أن يدعوك

([1]) – انظر : د . كريم زكي حسام الدين ، الإشارات الجسمية، ١٤ – ١٥ ، ١٣٦ – ١٣٧ .

للانجذاب له والتواصل معه، إما أن يدعوك للنفور منه والبعد عنه. ومن هنا تظهر لنا أهمية التفرس في السمات الجسمية للإنسان وهيئته وشكله والاستدلال به على مزاجه وأخلاقه، وهذا مناط اهتمام علم الفراسة عن العرب Physiognomy كما صرح بذلك الرازي في كتابه الفراسة، كما أنه مجال اهتمام الدراسات النفسية الحديثة التي تهتم بدراسة التلازم بين أنماط الشخصية Personality Types وأنماط الجسم Body Types ، وأثبت آرنست كرتشمر عالم النفس الألماني وجود صفات نفسية وسلوكية مشتركة لكل نمط من الأنماط الثلاثة لجسم الإنسان، وهي : النمط البدين، والنمط النحيف، والنمط العضلي([1]).

ج – ٢ – السيمياء ومؤثرات الاتصال

إذا كانت لغة الاتصال مهمة في تحقيق التواصل بين المرسِل والمستقبل، وفي شرح موضوع الاتصال وبيان جزئياته .. إلا أن الأهمية الكبرى تتمثل في كونها تنطوي على عناصر سيميائية لها تأثيرها الفاعل في طرفَيِ عملية الاتصال: المرسل والمستقبل .

فإن كان من الممكن إقامة عملية اتصال من غير الاعتماد بشكل أساسي على اللغة السيميائية – فمن غير الممكن أن يكون ثمة عملية اتصال فعَّالة يبرز فيها التبادل المثمر والتأثير والتأثر المتبادل بين المرسل والمستقبل حول موضوع الاتصال؛ دون أن تتسم لغة المرسل والمستقبل بالسيميائية أي تقوم بشكل أساسي على استخدام إشارات الجسم وحركاته وهيئاته في تمثيل الفكرة وتصويرها في نفس المتلقي بهدف إقناعه والتأثير فيه .

ولقد أشرتُ من قبل في المبحث الخاص باللغة الاتصالية من هذه الدراسة إلى أن ثمة فرقًا بين التعبير والتأثير، أي بين التعبير عن الفكرة والتأثير بها في المتلقي، وكذلك بين اللغة التعبيرية واللغة الاتصالية، فإذا كان كل الناس قادرًا في معظم الأحيان عن التعبير عن فكرته، فالبليغ والماهر في الاتصال فقط هو القادر على التأثير بفكرته وإقامة اتصال فعَّال مع المستقبل حول فكرته.. ولا يكون له هذا الأمر إلا أن يُحسن استخدام الإشارة ولغة الجسد، على نحو ما ألمح بذلك الجاحظ وأسلفناه

([1]) – للمزيد انظر : د . كريم زكي حسام الدين ، الإشارات الجسمية، ١٣١ وما بعدها .

من قبل، قال :" وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل والتفتل والتثني واستدعاء الشهوة "([1]).

وفي نص الجاحظ إشارة صريحة بأن البيان باللسان لا يتم بغير البيان بالإشارة أو حسن استخدام الإشارة باليد والرأس وغيرهما، بل إن لاستخدام الإشارة في البيان أثرًا في نفس المتلقي . هذا الأثر عظمه الجاحظ من قبل عندما جعل اللفظ (رغم ماله من أهمية وخصوصية وبروز) واحدة فقط من الوسائل الخمس للبيان، والوسائل الأربع الأخرى مرجعها إلى الإشارة – كما أسلفنا في المبحث الخاص بسيميائية اللغة – أي أن الجاحظ جعل ما يقرب من ثمانين في المائة من البيان أو الاتصال يجري عبر وسائل سيميائية، وهي: العقد والرسم والإشارة والخط . وهذه النسبة وذاك الأثر العظيم للإشارة في تحقيق البيان وتفعيل الاتصال قررته الدراسات الحديثة في علم الاتصال، حيث ذهبت بعض الدراسات إلى أن عملية الاتصال الفعالة تعود إلى مؤثرات لغوية: لفظية وجسدية، على أن نسبة المؤثرات السيميائية أو الإشارات الجسدية تصل إلى ٦٣% وأن نسبة المؤثرات اللفظية تصل إلى ٣٧% ، منها ٣٠% تعود إلى التلوين الصوتي، و ٧% فقط يعود إلى استخدام الكلمات ([2]).

ج – ٣ – السيمياء وتقويم الاتصال

تقوم عملية الاتصال الناجحة على تفاعل Interaction مستمر بين المرسل والمستقبل بواسطة الإشارات اللفظية وغير اللفظية حول موضوع معين أو رسالة اتصالية .. إلا أن هذا التفاعل قد يُعيقه معيق بسبب من الزمان أو المكان أو الموضوع أو البيئة أو لغة الاتصال أو قناته أو غير ذلك، فيتأثر بذلك طرفٌ من طرفَي التفاعل أو كلاهما، ولا يستطيع أحد الطرفين أن يدرك هذه الإعاقة على الطرف الثاني إلا من خلال ما يبدو عليه من إشارات الوجه والعينين، الأمر الذي يجعله يبحث عن سبب الإعاقة فيُزيله ويعدّل منه؛ حتى يعود إليه التفاعل والتواصل، وعلى نقيض ذلك يستطيع أحد طرفي الاتصال أن يدرك في الطرف الثاني من

([1]) – الجاحظ ، البيان والتبيين ، ١ / ٧٩ .

([2]) – انظر : ألن بيز ، لغة الجسد ، ٨ ، وانظر : جاك جريفن ، كيف تقولها في العمل ، ٢١ – ٢٢ .

إشارات جسده وحركاته مدى استجابته وتزايد قناعته وتأثره، الأمر الذي يجعل المرسِل يسترسل أو يكرر للمستقبل ما حاز على إعجابه، فتستمر عملية الاتصال فعالة بين الطرفين . وهذا ما أشار إليه آلن بيز : بأن الحركات الجسدية تكشف حال المستقبل للمرسل : مدى انفعاله باللغة، ومدى تصديقه أو تكذيب أو إنكاره أو عدم فهمه ([1]).

ومما يذكر في هذا الباب أن النساء أكثر من الرجال إدراكًا لتفاصيل الحركة الجسدية ودلالتها، وأنهن أكثر منهم كذلك امتلاكًا لها في التأثير"([2]).

رابعًا : السيميائية وأبعاد المعنى في الحديث النبوي

بعد أن أثبتت الدراسةُ في المباحث السابقة سيميائية اللغة والاتصال بصفة عامة، فإنها تطبق – في هذا المبحث – هذه السيميائية على شخص الرسول ρ بصفة خاصة؛ في لغته وشمائله النبوية في الاتصال؛ لنرى كيف مارس ρ هذه السيميائية في اتصاله وتفاعله وتأثيره فيمن اتصلوا به أو تلقوا عنه، وكيف كان أثرها في معاني الحديث النبوي: اختصارًا وإزالة لبس وتوضيحًا وتجسيدًا وتمثيلاً وتأكيدًا من ناحية، وفي استنباط العلماء لأحكامها الفقهية من ناحية أخرى؛ ولذا يحسن مقاربة هذه القضايا في ثلاثة مباحث كالتالي :

أ – سيميائية الاتصال النبوي

ب – سيميائية اللغة وأهميتها لمعاني الحديث النبوي

ج – السيمياء في الحديث ومناطات الحكم الفقهي .

ونفصِّل القول في هذه المباحث على النحو التالي:

أ – سيميائية الاتصال النبوي

إذا كانت إجادة لغة الاتصال تعبيرًا وفهمًا، سواء اللفظية منها أو الجسدية – مثل جُماعَ مهارات الاتصال الفعَّال على نحو ما أثبتنا في المبحث السالف؛ فإن رسول الله ρ يُعد سيد ولد آدم في إجادة الاتصال ولا فخر، فقد آثره الله دون سائر

([1]) – انظر : ألن بيز ، لغة الجسد، ٨ – ٩ .

([2]) – انظر : ألن بيز ، لغة الجسد، ٩ .

خلقه، بأن " أعطي جوامع الكلم "([1]) ، وأوتي القرآنَ ومثله معه "([2]) ، كما شهد له العرب بأنه أفصحهم لسانًا وأبلغهم بيانًا، وكما امتدحه الله في كتابه بما لو جُمع في شخص إلى فصاحة لسانه وبلاغة بيانه لكان أمهر الناس اتصالاً وأكثرهم تأثيرًا، ولهدى الله بكلامه قلوبًا غفلاً، وأسمع له آذنًا صُمًّا، وقد كان ذلك بالفعل لرسول الله ρ عندما امتدحه الله بقوله :(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)([3]) وقوله تعالى:(وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)([4]) ، وليس من شك في أن الرسول ρ قد اختاره الله لرسالته فأيده بهذه الصفات وأدبه بهذه الآداب، حيث يقول ρ : " أدبني ربي فأحسن تأديبي" .([5])

فلقد كان من مهارتهρ في الاتصال أنه أكثر الناس معرفة بشخصية مَنْ يدعوه (المستقبل)، وأوعى الناس إدراكًا لرسالته وأدقهم تحديدًا لهدفه، وأملكهم لمؤثرات الخطاب: اللفظية والجسدية، وأكثرهم تفرسًا لوجه من يدعوه فيلاحظ مدى تأثره بكلامه، فيختار له أنسب الطرق والقنوات التي تجذب انتباهه لرسالته فتؤثر فيه ويتفاعل معها .

فمن شمائله ρ في دعوته واتصاله بالآخرين أنه كان متواضعًا يستمع للصغير والكبير، والشاب والعجوز، والمؤمن والكافر، والطائع والعاصي، كما كان سمحًا لين الجانب، فلم يغضب لنفسه قط، كما كان يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويدعو إلى المحاورة بالحسنى والتسامح، فمن أقواله ρ :" إن المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى "([6]) .. أضف إلى ذلك أنه كان ρ لطيفًا في نصحه للآخر حريصًا على إقناعه قبل توجيهه، فمن حسن طريقته ρ أنه كان يقول : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ... ومن أقواله ρ للشاب الذي جاءه يستأذنه في الزنا: (أتحبه لأمك ،

([1]) – الإمام أحمد ، مسند الإمام أحمد ، حديث رقم ٩٣٢٦ ، ٢ / ٤١١ .

([2]) – الإمام أحمد ، مسند الإمام أحمد ، حديث رقم ١٧٢١٣ ، ٤ / ١٣٠ .

([3]) – القلم ٤ .

([4]) – آل عمران ١٥٩ .

([5]) – محمد ناصر الدين الألباني، السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف، د.ت، رقم الحديث ٧٢ /١ /١٧٣ .

([6]) – أبو بكر البيهقي ، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز ، مكة ، ١٩٩٤ ، حديث رقم ٤٥٢٠(حديث ضعيف) ٣ / ١٨ .

لابنتك، لأختك ؟ قال : لا . قال : كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا يحبونه لبناتهم ولا يحبونه لأخواتهم)([1]) وكل هذا من مهاراته ρ في معرفة شخصية المستقبل واختياره له أفضل القنوات في الاتصال به والتفاعل معه وإقناعه والتأثير فيه برسالته .

وتتجلى سيميائية الرسول ρ في اتصاله فيما كان ρ يستخدمه في خطابه وحواره وحديثه من مؤثرات لغوية سيميائية : لفظية وجسدية؛ لأن من كان هذا اتصاله، لابد أن تكون هذه لغته، فاتصال فعال ومؤثر مثل اتصاله ρ ، لابد أن تكون لغته لغة سيميائية في ألفاظها وألحاظها أو إشاراتها؛ لأن نجاح الاتصال وفعَّاليته تعود بنسبة ٦٥% منها إلى استخدام ألحاظ الجسم وهيئاته وإشارات الأعضاء وحركاتها على نحو ما أسلفنا قبل ذلك، وكل هذا من سيميائية اللغة في ألحاظها، إلى جانب أن ثمة سيميائية أخرى تُرجعها هذه الدراسة إلى ألفاظ اللغة، على نحو ما يظهر في إيثار المتكلم لألفاظ الجسد والطبيعة في تعبيره واتصاله.

فلقد كان لسان الرسول ρ من وراء قلبه، لا يتكلم بالكلمة إلا بعد أن يعقلها ويعيها بقلبه ومشاعره، فتنعكس آثارها على وجهه ويديه وسائر أعضائه؛ إذ أُثِرَ عنه ρ في غير موقف أن أثر الفرح أو الغضب كان يظهر على وجهه قبل أن يعبر عنه بلسانه، فمما ورد عنه ρ في غير موقف : أنه غضب حتى احمرَّ وجهه، وأنه كان متكئًا فجلس، وأنه تبسم حتى بدت نواجذه .

هذا بالنسبة إلى ما ينعكس عليه ρ من إشارات جسمية أثناء خطابه، فضلاً عن أن ثمة إشارات وحركات جسمية أخرى أثرت عنه ρ ، أنه كان يفعلها قصدًا بهدف جذب انتباه المخاطب لمعنى من المعاني، أو ليوضح له معنى أو يجسده أو يمثله أمامه بالإشارة أو بالصوت والحركة ليكون في نفسه أوضح وآكد، فقد أثر عنه أنه ρ أخذ بمنكبي عبد الله بن عمر ليوصيه، وأنه أخذ بلسان نفسه مؤكدًا لسفيان بن عبد الله الثقفي أنه أخوف ما يخافه عليه وعلى أمته، وأنه خط بيده في التراب، وأنه لحا قضيبًا بيده ليشبِّه به، وأنه شبَّك بين أصابعه، وأنه رفع يديه قائلاً لا حرج، وأنه أشار بيده إلى فيه، وأنه أمسك بالحرير والذهب بيديه ثم رفعهما محرمًا إياهما

([1]) – أبو بكر البيهقي ، سنن البيهقي الكبرى ، حديث رقم ١٨٢٨٨ ، ٩ / ١٦١ .

على ذكور أمته ... إلى غير ذلك من إشاراته ρ وحركاته وأفعاله الجسدية التي سنذكرها بعد ذلك بنصوصها لنوضح معانيها .

ومن سيميائية الاتصال عند رسول الله ρ أنه كان يجيد الاستماع والإنصات للمخاطب، فيستمع له قبل أن يحدثه، ويستقبله بوجهه وكامل اهتمامه؛ الأمر الذي يجعل المخاطَب يكشف له كل ما عنده، في الوقت الذي يجيد ρ تفرسه لوجهه وما يظهر عليه من علامات الصدق أو الكذب، الاقتناع أو الإنكار، الفهم أو عدم الفهم مما يساعد الرسول ρ على أن يتغلب على كل ما يطرأ من معوقات تعوق نجاح أية عملية اتصال هو أحد أطرافها. وتعودُ إجادة هذه المهارة من مهارات الاتصال في الأساس إلى إجادة مؤثرات الخطاب الإشارية تعبيرًا وفهمًا .

ويُعد من السيميائية في الاتصال كذلك أن الرسول ρ كان يفضل في اتصاله بصاحبته في أمور التشريع أن يجعل أوامره ونواهيه سلوكيات فعلية يفعلها أو ينتهي عنها ثم يطلب من صحابته وأمته أن يأخذوها عنه، فقد قال ρ في الحج : "خذوا عني مناسككم "([1]) وقال عن الصلاة :" صلوا كما رأيتموني أصلي "([2]) .. وإذا كانت فعَّالية الاتصال ونجاحه يُقاس بمدى اقتناع المستقبل بموضوع الاتصال ورسالته ومدى تأثره بها وتطبيقه إياها؛ فإن ما كان يفعله الرسول ρ من الطاعات وينتهي به عن المنهيات (وكلها أفعال حركية) – لخير وسيلة إلى الاتصال السيميائي الفعال .

ب – سيميائية اللغة وأهميتها لمعاني الحديث النبوي

بالنظرة الفاحصة للغة الحديث النبوي الشريف تبين أن ثمة لغتين:

لغة الحديث النبوي نفسه المتمثلة في نص ما قاله الرسول ρ، ولغة الراوي الذي نقل لنا حديث رسول الله ρ، وهي نص كلام الراوي الذي يصف به المقام والمناسبة التي قيل فيها الحديث كما يصف لنا إشارات رسول الله ρ الإرادية والعفوية التي بدت عليه أثناء صدور الحديث عنه .

([1]) – الإمام مالك ، موطأ مالك ، تحقيق د . تقي الدين الندوي ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٩١ ، حديث رقم ٤٦٥ ، ٢ / ٣٢٩ .

([2]) – البخاري ، صحيح البخاري ، حديث رقم ٦٠٥، ١ / ٢٢٦ .

والحق يقال إن ما فعله رواةُ الحديث النبوي الشريف– في إطار ما اشتُرط فيهم وعُرف عنهم من أمانة في النقل ودقة في الوصف ومقدرة على الحفظ– من روايتهم حديث رسول الله ρ: عباراته ومناسبته وإشاراته ρ الجسمية التي لازمته؛ ليُعدُّ لكل مَنْ لم يشهد مناسبة الحديث ومقامه مشهدًا وصورةً تنقل له أحداث الكلام وملابساته ومعونةً حاضرة له تساعده على فهم الحديث النبوي وتحديد مقاصده والوعي بحكمه وأحكامه .

ومن باب (وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)([1]) أذكر هنا فضل رواة الحديث وجهدهم، وكذلك فضل علماء الحديث وعلماء الجرح والتعديل الذين نقدوا هذه الروايات وبينوا مراتبها من الصحة والضعف، حتى وصل لنا الحديث بهذه الكيفية من الدقة والأمانة. ويعد من نكران الفضل وجحوده أن نجد مَنْ يقلل من جهد هؤلاء الرواة بحجة أنهم خلطوا الرواية بنص الحديث وأنهم رووا لنا الحديث بمعناه لا بلفظه؛ والعجيب أن يقال هذا الكلام على رواة عرفوا بالمقدرة الفائقة على الحفظ كما عرفوا بالأمانة والتقى وسلامة المروءة فضلاً عن قوة الذاكرة ومقابلتهم للرسول ρ أو معاصرتهم له ولمن قابلوه؛ الأمر الذي يجعلنا نسلِّم بكل ارتياح واطمئنان بأن ما رووه هو حديث رسول الله ρ ولم يحرفوه عن لفظه أو عن مقصده، لأن معظم الأحاديث عبارة عن جمل قصيرة وعبارات موجزة، يسهل حفظها ونقلها، فهل ثمة تغيير أو تبديل متوقع من الرواة في روايتهم أحاديث موجزة، مثل: " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك "([2]) ، " مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد "([3]) ، " رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله "([4]) ... وثمة أحاديث كثيرة بهذا الشكل من الإيجاز، وحتى الأحاديث الطويلة بعض الشيء نرى سهولة في لفظها وفي حفظها فما بالك بهؤلاء الرواة وهم من هم في الحفظ وعدم النسيان .

([1]) – البقرة ٢٣٧ .

([2]) – الترمذي ، سنن الترمذي ، حديث رقم ٢٥١٨ ، ٦٦٨/٤ .

([3]) – البخاري ، صحيح البخاري ، حديث رقم ٢٥٥٠ ، ٩٥٩/٢ .

([4]) – النسائي ، سنن النسائي الكبرى ، حديث رقم ١١٣٩٤ ، ٤٢٨/٦ .

المهم أن نؤكد هنا أن إثبات سيميائية اللغة في الحديث النبوي الشريف بالنسبة لي ولكل من فاته محاضرة رسول الله ρ وهو يتحدث- سيكون من وجهتين، وهما:

الجهة الأولى تتمثل فيما وصّفه وحرص على نقله لنا رواةُ الحديث النبوي، من إشارات الرسول ρ وحركاته الجسمية التي لازمته وهو يُحدّثهم. وتُعنى الدراسة هنا ببيان سيميائية لغة الحديث في ألحاظها .

والجهة الثانية يمثلها نص كلام الرسول ρ وأحاديثه، وما تنبني عليه كلماته وألفاظه من إشارات وحركات. وتُعنى الدراسة هنا ببيان سيميائية لغة الرسول ρ في ألفاظها .

ويجب أن ننبِّه هنا على دراسة بهذا الحجم لا تستطيع مسح أحاديث الرسول ρ كلها، وإنما ستنتقي عينة منها من ناحية، ومن ناحية أخرى ليست كل الأحاديث تتجلى فيها سيميائية اللغة في ألفاظها أو يكون الرسول ρ قد استخدم فيها إشارات يديه وأصابعه ورأسه ووجهه وفمه أو هيئة جسمه بطريقة دالة في معنى الحديث أو موضحة أو موجهة له، لأن ثمة أحاديث كثيرة قد يكون الرسول ρ لم يُشر فيها أو أشار فيها إشارات لم تكن ذات دلالة جديدة، ولم يذكرها الرواة، وثمة أحاديث أخرى لم تتضمن ألفاظًا سيميائية فكل هذه الأحاديث لا تصلح مادة للدراسة؛ لأن الدراسة معنية بإثبات تواجد العناصر السيميائية في لغة الحديث النبوي الشريف، سواء في ألحاظها أو في ألفاظها، فضلاً عن أنها لا تعنى برصد نسبة السيميائية في لغة الحديث النبوي.

ولكي ترى الدراسة ماذا يمكن أن تُفيده- من الدراسات السابقة- في رصدها السيميائية في لغة الحديث النبوي ؟ آثرت أن تناقش اتجاهين في قضية الاستشهاد بالآيات القرآنية في رصدها الاتصال غير اللفظي أو الاتصال بالإشارات والحركات في القرآن الكريم. الاتجاه الأول يمثله الدكتور محمد الأمين موسى في كتابه(الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم) ، حيث يذكر فيه جميع الآيات التي ذكرت أعضاء جسم الإنسان وحواسه، ليس هذا فحسب بل التي دلت على ذلك بالكناية أو المجاز، والاتجاه الثاني تمثله الدكتورة فاطمة محمد محجوب في كتابها(دراسات في علم اللغة) حيث اقتصرت في استشهاداتها على الآيات التي تصف لنا إشارة

جسمية أو حركة عضوية أو هيئة جسدية، صراحةً أو مجازًا، واستبعدت الآيات التي فيها ألفاظ أعضاء جسم الإنسان وحواسه وهيئاته ما لم تصف لنا إشارة أو حركة أو هيئة إنسانية لها دلالة اتصالية.([1])

ورأيي أن ثمة ملاحظات على كلا المذهبين؛ لأن ما فعله الدكتور محمد الأمين في استشهاده جعله يدخل آيات قرآنية بتفسيراتها ولا مبرر لوجودها في بحثه، فمثلاً أي مبرر يجعله يدخل تحت فصل (الاتصال بالعين في القرآن) مبحثين بعنوان : علم الغيب، الشهادة ؟([2]) ويتشهد بآيات تفيد معظمها علم الله للغيب والشهادة، من مثل قوله تعالى:(أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)([3])، وقوله تعالى:(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)([4])، وقوله تعالى:(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)([5]) ... فأي معنى أفدناه من هذه الآيات عن طريق تصوير القرآن لإشارة أو حركة أو هيئة جسمية أو حتى لشيء مناظر للإشارة والحركة أو غير ذلك مما يقع تحت وسائل الاتصال غير اللفظي على نحو ما حدده الدكتور الأمين في مقدمة كتابه ؟! ناهيك عن أن هذه الآيات ليس فيها ذكر جارحة من الجوارح التي بها يكون الاتصال، فضلاً عن أنها منسوبة إلى الله، ولا يجوز الاستشهاد بها في هذا المجال على حد تعبير الدكتورة فاطمة محجوب : " لأنه تعالى منزه عن الجوارح "([6]) .

أما ما فعلته الدكتورة فاطمة محجوب من قصرها الآيات التي بها اتصال غير لفظي على الآيات التي تصور لنا إشارة أو حركة جسمية مفردة، أو مركبة من عضوين، أو من عضو وشيء خارجي، أو إشارة صفرية سالبة، على نحو ما حددت

([1]) – انظر د. فاطمة محمد محجوب، دراسات في علم اللغة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ١٨٩ وما بعدها .

([2]) – انظر : د . محمد الأمين موسى، الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، دار الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات ، ٢٠٠٣ ، ١٣٩ – ١٥٣ .

([3])– البقرة ٣٣ .

([4]) – آل عمران ٩٨ .

([5]) – النساء ٣٣ ، وانظر استشهاد الدكتور الأمين بهذه الآيات : الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٩ .

([6]) – د . فاطمة محجوب ، دراسات في علم اللغة ، ١٨٩ .

لنا أنواع الحركات (الكينات Kines)، أو التي تصور لنا هيئة جسمية مناظرة للحركة مثل تغير لون الجلد، أو الركوع والسجود والقعود والوقوف أو غير ذلك مما أسمته باراكينات Parakines([1]) – فإنها تجاهلت بذلك جميع الآيات التي فيها ذكر ألفاظ أعضاء جسم الإنسان وحواسه ما لم تصور أو تصف إشارة أو حركة، والحقيقة أن هذه الدراسة وجدت أن ثمة سيميائية في بعض هذه الآيات التي تذكر ألفاظ الجسد وحواسه ليس على سبيل الحقيقة بل على سبيل الكناية أو المجاز تجسيدًا للمعنى وتمثيلاً له وعودةً باللغة إلى أصلها في التعبير، وما في ذلك من معنى إشاري أسمته الدراسة (سيميائية اللغة في ألفاظها) .

فمثلاً لو عدنا إلى قوله تعالى (شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكيم) ([2]) حيث ذكر أبو عبيدة أن حقيقة معنى (شهد) علِمَ وبيَّن ما علمه بالأدلة التي شاهدها بنفسه، وأن مجازه هنا: قضى الله بوحدانيته ودلل على ذلك بخلقه، ودللت الملائكة وأولو العلم على وحدانيته بما عاينوه وشاهدوه من عظيم خلقه الذي لم يبلغه أحد([3]) . فالملاحظ هنا أن المعنى المراد من عملية الاتصال في هذه الآية هو الإقرار والاعتراف بالأدلة على وحدانية الله، فقُدِّم هذا المعنى للمستقبل أو المخاطَب عبر الفعل الحسي (شهد) وما فيه من المعاينة والرؤية والمشاهدة الحسية التي تجعل المقر والمدلل على وحدانية الله يقدم أدلةً يقينُهُ بها يقينُ الذي يُطَلب منه التدليل على وجود شيء هو يراه بعينيه . ولعل في إيثار التعبير بالفعْل (شهد) بدلاً من الفعل (علم أو أقر أو قضى) – دليلاً على ميل الأسلوب إلى تجسيد المعنى المجرد يستدعي لفهمه إثارة ذهن المخاطَب أو المستقبل وفكره وخياله وصور الأشياء والحواس وأعضاء الجسم عنده، ولعل في ذلك من السيميائية ما لا يخفى .

وهذه الآيات استشهد بها الدكتور محمد الأمين على الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، لكنَّ الذي يؤخذ عليه أنه لم يشرْ إلى ما أشارت إليه هذه الدراسة من

([1]) – انظر : د . فاطمة محجوب ، دراسات في علم اللغة ، ١٧٠ ، ٢٠٢ .

([2]) – آل عمران ، ١٨ .

([3]) – انظر : ابن منظور : مادة شهد .

وجود ما يسمى بـ (سيميائية اللغة في ألفاظها) فضلاً عن أنه استشهد بكل الآيات التي فيها مجرد لفظة من ألفاظ جوارح الإنسان وحواسه، لدرجة أنه بلغت عدد الآيات التي استشهد بها ٤٤٨٠ آية من إجمالي عدد آيات القرآن ٦٢٣٦ آية.([1])

ومن ثم يتبين أن الدراسة ستكشف عن سيميائية اللغة في الحديث النبوي من خلال مبحثين : مبحث خاص بلغة رواة الحديث الذين وصفوا لنا إشارات الرسول ρ وحركاته وهيئاته الجسمية التي لازمته أثناء التحدث وهو ما تسميه الدراسة : بسيميائية لغة الحديث في ألحاظها، والمبحث الثاني خاص بنص كلام الرسول ρ وما فيه من استخدام لألفاظ الجسد استخدامًا كنائيًّا أو مجازيًّا أو تشبيهيًّا أو رمزيًّا، يعكس لنا سيميائية اللغة في ألفاظها . ويمكن توضيح هذين المبحثين فيما يلي :

١ – سيميائية لغة الحديث في ألحاظها وأثرها في المعنى

من المعلوم أن رسول الله ρ كان أسوة ومثلاً بشريًّا يُحتذى، في قوله وفعله وإقراره، وهذا ما أدركه الصحابة عنه ρ، فحرصوا على ملازمتهم إياه وحفظ أقواله والاقتداء بأفعاله وسنته؛ ومن ثم لا غرو أن تُنقل لنا أحاديثه ρ مشتملة على: أفعاله وأقواله وإشاراته وحركاته والمواقف التي قيلت فيها .

وهذا المبحث يبين مدى اعتماد رسول الله ρ على إشاراته الجسمية وحركاته العضوية وهيئاته الجسدية في أحاديثه ρ ، وبعبارة أخرى يبين ما هي الوظائف الدلالية والبيانية التي حمَّلها وقصدها رسول الله ρ من إشاراته وحركاته التي أصدرها ملازمة لأقواله وأحاديثه . ونظرًا لأهمية هذه الإشارات والحركات لمعاني الحديث النبوي حرص الرواة على نقلها كما هي، فقد رووها لنا بنفس الأمانة الدقة التي رووا بها لفظ الأحاديث، وهذا مؤشر دالّ بقوة على أهمية هذه الإشارات لمعاني الحديث، لأن هؤلاء الرواة سلاسل من الرجال الثقات العدول الضابطين، بمعنى أن آخرهم نقل بالتسلسل عن أولهم الذي حاضر رسول الله ورأى منه هذه الإشارات كما سمع منه هذه الكلمات اللتين كونتا إجمالا أحاديث رسول الله ρ .

ولذلك، فإن هذا المبحث سينتقي نماذج من أحاديثه ρ مبينًا في كل حديث نوع الإشارة أو الحركة التي رُويت عنه ρ مع رواية لفظ حديثه، وأثرها في توضيح معنى

([1]) – انظر : د . محمد الأمين موسى ، الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، ١٨ .

الحديث النبوي أو إزالة اللبس أو تحديد القصد، ويمكن أن نوضح ذلك على أن نذكر الإشارة أو الحركة التي استخدمها الرسول ρ في أحاديثه، ثم نسوق عليها حديثًا على الأقل نُبيِّن به أهمية هذه الإشارة في فهم معنى الحديث وذلك على النحو التالي :

١– ١ – تشبيك الأصابع

استخدم رسول الله ρ في اتصاله بصحابته وبمن حوله، وفي غير مرة إشارة(تشبيك أصابع اليدين وإدخال بعضها في بعض)؛ وذلك ضمن تعليمه ووعظه لصحابته، مع مراعاة أن الإشارة الواحدة مثل الكلمة قد تحقق وظائف دلالية مختلفة في كل مرة باختلاف السياق . وتصنف هذه الحركة أو الإشارة بأنها إشارة حركية يستخدم فيها أصابع اليدين معًا، ويمكن أن نرى من خلال الأحاديث النبوية، متى استخدمها الرسول ρ وبأي معنى، وذلك على النحو التالي :

روى لنا البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن أبي موسى الأشعري τ قال : قال رسول الله ρ:" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضًا، ثم شبَّك بين أصابعه "([1]).

ولعل الناظر في مثل هذا الحديث الذي صنفه الإمام مسلم تحت (باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم)، يجد أن المعنى الذي يحدّثنا فيه رسول الله ρ هو التكامل والتماسك والتعاضد على نحو ما أشار الإمامان البخاري ومسلم . ولعل من البلاغة النبوية في هذا الباب أن يأتي الرسول ρ في تشبيهه بلفظ (البنيان) وهو معنى محسوس لا يخفى علينا ما يقوم عليه من تماسك وتعاضد وما في ذلك من تقوية للمعنى وتجسيده وتصويره، فضلاً عما فيه من سيميائية اللفظ التي سنوضحها بالتفصيل في المبحث القادم، ومن بلاغة ما أتى به رسول الله ρ أيضًا في هذا الحديث أنه (شبك بين أصابعه) ليوضح بهذه الإشارة العملية والحركة اليدوية معنى التداخل والتشابك والتعاضد، على نحو ما تشاهده العين ويلمسه الإحساس من تداخل الكف في الكف وتشابك الأصابع بالأصابع والتعاضد الناتج عن ذلك . ومن ثم يتضح إلى مدى اعتمد الرسول ρ في حديث واحد مثل هذا على السيميائية في تجلية المعنى وتصويره سواء على مستوى اللفظ أو مستوى الإشارة .

([1]) – البخاري ، صحيح البخاري ، حديث رقم ٥٦٨٠ ، ٥ / ٢٢٤٢ .

ومن أحاديثه ρ كذلك التي استخدم فيها الرسول ρ أنْ (شبك بين أصابعه) بمعنى متقارب لمعناها في الحديث السابق وليس هو إياه، ما رواه الإمام مسلم عن حديث جابر بن عبد الله الطويل في حَجَّة النبي ρ قوله : " لو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ، لم أَسُق الهدْي، وجعلتُها عمرة، من كان منكم ليس معه هدي فليحلَّ، وليجعلها عمرة، فقام سُراقة بن مالك بن جُعْشم، فقال : يا رسول الله، ألعامنا هذا أم لأبَد ؟ فشبك رسول الله ρ أصابعه واحدة في الأخرى وقال : دخلت العُمرة في الحج، دخلت العمرةُ في الحج، لا، بل لأبد أبدٍ "([1])

فالمعنى الذي يريد رسول الله ρ أن يوضحه ويؤكده بالإشارة هو التداخل، والمقصود به في الحديث تداخل العمرة في الحج، وهذا ما أكده الرسول ρ أيضًا بتكرار العبارة . وثمة أكثر من وجه ذكره الإمام النووي([2]) في شرح المقصود بعبارته ρ (دخلت العمرة في الحج) ، ولكن أظهر هذه الوجوه هو جواز أداء العمرة في أشهر الحج خلافًا لما كان يُزعَمُ في الجاهلية من امتناع ذلك، والسبب في رجحان هذا الوجه من المعنى أنه موضح في إشارة الرسول ρ بيديه عندما شبك بين أصابعه، وما في ذلك من تمثيل وتشبيه لمعنى التداخل الحاصل من جواز أداء مناسك العمرة في أيام الحج . ومن ثم فإني أؤيد الإمام النووي في إسقاط ما رواه من آراء حول معنى هذه العبارة؛ لأن معنى إسقاط العمرة وعدم وجوبها، ومعنى فسخ الحج إلى العمرة، لا يتوافق ومعنى إشارة الرسول ρ بيده .

١-٢ – الإشارة بإصبعي السبابة والوسطى

ومن الإشارات المأثورة كذلك عن رسول الله ρ في أحاديثه الإشارة بإصبعيه السبابة والوسطى، والعجيب أن الرسول ρ في إشارته تلك اكتفى بها في توصيل المعنى واستغنى بها عن اللفظ في بيان مقصده، ويتضح ذلك فيما رواه البخاري عن

([1]) – الإمام مسلم ، صحيح مسلم ، حديث رقم ١٢١٨ ، ٢ / ٨٨٦ .

([2]) – انظر : النووي ، شرح النووي على صحيح مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ١٣٩٢ هـ ، ٨ / ١٦٦ .

سهل بن سعد الساعدي، قال : قال رسول الله ρ:" أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وأشار بأصبعيه : السبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئًا"([1]).

ويُعد هذا الحديث مَضْرِبَ الشاهد على مدى تداخل الألفاظ مع الإشارات في بناء لغة المتكلم وإنشاء اتصال حول موضوع أو فكرة، فضلاً عما يحدث بينهما من استعانة واستكمال تارة ومن إغناء أو إنابة تارة أخرى؛ لأن الرسول ρ في هذا الحديث أعاد اللفظ إلى الإشارة وشبَّه المعنى المستفاد من اللفظ بالمعنى المستفاد من الإشارة؛ إذ ربط فهم اللفظ برؤية الإشارة أو تمثلها، لأن الحديث بمجمله يمثل (تشبيهًا تمثيليًّا مركبًا)([2]) بمصطلح عبد القاهر في أسرار البلاغة، حيث شبه الرسول ρ اليتيم في مُلازمته إياه واقترابه منه في الجنة بحال الإصبع السبابة في ملازمتها واقترابها من الإصبع الوسطى، طبعًا مع الفارق بينهما في الدرجة على نحو ما يتضح من الفرق بين الإصبعين من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الرسول ρ فرَّج بين الإصبعين في إشارته . وهذا المعنى يفهم لو أخذنا الإشارة بتفاصيلها، إلا أن ثمة معنى آخر يمكن أن يفهم من مجمل الإشارة، وهو ذلك المعنى الإشاري العام الذي يفهمه ويتبادله أكثر من مجتمع إنساني في عالمنا المعاصر وهو معنى الفوز والنصر، أي أن من كفل يتيمًا فقد فاز مع رسول الله ρ ليس بالجنة فحسب، بل فاز فيها بأعلى الدرجات، وهي الفردوس الأعلى. وهنا تتضح أهمية السيميائية في لغة الرسول ρ في توضيح المعنى والإبانة عن القصد، وتمثيلهما وتصويرهما وتأكيدهما في نفس المخاطب .

١– ٣ – الإشارة باليد

لا شك أن اليد في التواصل بالإشارة مثل اللسان في التواصل اللفظي،حيث تمثِّل اليدُ في التواصل بالإشارة سواء بمفردها أو بالاشتراك مع عضو آخر عدة حركات وإيماءات وهيئات لها دلالاتها المتواضع عليها في التواصل اللغوي . وإذا كنا قد لمسنا هذا في التواصل اللغوي بصفة عامة فقد وجدناه كذلك في التواصل اللغوي للرسول ρ، حيث اعتمد عليها الرسولρ في تعيين الأشياء يبيّنها، أو تحديد

([1]) – البخاري ، صحيح البخاري، حديث رقم ٤٩٩٨ ، ٥ / ٢٠٣٢ .

([2]) – عبد القاهر ، أسرار البلاغة، تحقيق محمد رشيد رضا، ٦٨ وما بعدها .

الأشخاص ينتدبها، ومن هذه الإشارات، إشارة الرسول ρ بيده إلى فمه ليوضح بإشارته تلك معنى عبارة (يلجمه العرق إلجامًا) ، وذلك كما في حديثه الذي رواه مسلم عن المقداد بن الأسود τ قال : سمعت رسول الله ρ يقول : تُدنى الشمسُ يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار مِيْل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقْويه، ومنهم من يُلْجمه العرق إلجامًا، وأشار رسول الله ρ بيده إلى فيه ".([1])

وتأتي الإشارة في هذا الحديث من رسول الله ρ ليوضح بها معنى عبارة (يلجمه العرق إلجامًا) أو يصوره في نفس المخاطب، وهذا يؤكد لنا أن المتكلم قد يجد في نفسه أنه يستخدم إشارة مع عبارة أو عقبها ليوضح معنى أو يزيل لبسًا متوقّعًا أن يكون عند المخاطبين أو على الأقل عند بعضهم .

ولعل من أبرز إشاراته ρ بيده، رفع اليدين وهي حركة عضوية مركبة، ما رواه لنا الدراقُطني في سُننه عن ابن عباس τ ، أن النبي ρ " سئل يوم النحر عمن قَدَّم شيئًا قبل شيء، وشيئًا قبل شيء؟ قال : فرفع رسول الله ρ يديه، وقال : لا حرج، لا حرج"([2]).

والملاحظ هنا أن الرسول ρ قدَّم الإشارة (رفع اليدين) على العبارة (لا حرج)، والذي أفهمه من هذا أن السائل مقبل على الرسول ρ عن بعد، قلق مما رآه، متلهف لمعرفة الحكم، فطمأنه الرسول ρ برفع يديه إشارة بعدم الحرج، وهذا يعني أن الرسول ρ بيَّن المعنى والقصد بلحظه قبل لفظه، مما يؤكد ما تسعى الدراسة لتأكيده وهو اعتماد الرسول ρ في لغته وبيانه على سيميائية الحركة واللحظ .

١– ٤ – الإمساك بالشيء

من الإشارات المركبة الشهيرة عن رسولنا ρ في لغته واتصاله الإمساك بالشيء والإشارة به ليوضح معنى ما، سواء أكان الممسوك عضوًا من أعضاء الجسد أو شيئًا خارجيًّا . ولعل هذه الطريقة في التشاير من الطرق التربوية المعتمدة قديمًا وحديثًا في التعليم، فلقد استخدمها الرسول ρ أكثر من مرة بشكل مختلف ليجمع بها

([1]) – مسلم ، صحيح مسلم ، حديث رقم ٢٨٦٤ ، ٤ / ٢١٩٦ .

([2]) – الدراقطني ، سنن الدراقطني ، كتاب الحج ٢ / ٢٥٣ .

بين القول والإشارة، فيكون أدعى لتنبيه المخاطب وتأكيد المعنى أو الحكم له([1]) .
ويمكن أن نوضح ذلك من خلال نماذج من أحاديثه ρ، على النحو التالي :

إمساك الرسول بلسانه

روى مسلم والترمذي واللفظ له عن سفيان بن عبد الله الثقفي τ ، قال : "قلتُ يا رسول الله حدِّثني بأمر أعتصم به، قال : قل: ربي الله، ثم استقم . قلت: يا رسول الله ρ ما أخوفُ ما تخاف علي ؟ فأخذ رسول الله ρ بلسان نفسه، ثم قال: هذا "([2]).

فالرسول ρ أجاب عن السائل بالإشارة قبل العبارة، ولعل مثل هذه الإجابة من رسول الله ρ في هذا الحديث، لا يمكن أن نفهم منها معنى لو أن راوي الحديث لم يرو لنا (إشارة الرسول وإمساكه بلسانه)، وكون الرسول ρ يكتفي بالإشارة جوابًا في تحديده أمرًا جللاً يخشى الرسول ρ على أمته منه – فهذا يعني أن الإشارة قد يكون مبلغها من البيان أبعد من مبلغ الكلام، فضلاً عن كونها في الأساس صنوانًا للفظ في بناء لغة الاتصال، فنعم العون هي له ونعم الترجمان.

إمساك الرسول بمنكبي عبد الله بن عمر

روى البخاري عن عبد الله بن عمر ψ قال : " أخذ رسول الله ρ بمنكبي، فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل "([3]) . وفي رواية الترمذي : أخذ رسول الله ببعض جسدي ([4]).

ولعل في إمساك الرسول ρ بمنكبي عبد الله بن عمر وهو يوصيه إشارةً منه إليه بزيادة انتباهه واهتمامه بما يوصيه به، حتى يكون على ذكر به وتطبيق له .

إمساك الرسول بالشيء المنهي عنه

إمعانًا في تأكيد الحكم وتحديد الشيء المنهي عنه امسك الرسول ρ الحرير والذهب بيديه ليحرمهما على الرجال من أمته، كما في الحديث الذي رواه أبو داوود

([1]) – انظر في ذلك: د.عبد الفتاح أبو غدّة ، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، دار البشائر الإسلامية، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٦ ، ١١٨ وما بعدها .

([2]) – الترمذي ، سنن الترمذي ، حديث رقم ٢٤١٠ ، ٤ / ٦٠٧ .

([3]) – البخاري ، صحيح البخاري ، حديث رقم ٦٠٥٣ ، ٥ / ٢٣٥٨ .

([4]) – الترمذي ، سنن الترمذي ، حديث رقم ٢٣٣٣ ، ٤ / ٥٦٧ .

والنسائي وابن ماجة واللفظ له، عن عليّ بن أبي طالب τ قال : " أخذ رسول الله ρ حريرًا بشماله، وذهبًا بيمينه، ثم رفع بهما يديه فقال : إن هذين حرام على ذكور أمتي، حِل لإناثهم "([1])

ويعلق الدكتور عبد الفتاح أبو غدّة في كتابه (الرسول المعلم) على الإشارة في هذا الحديث قائلاً :" وتارة كان ρ يحمل بيده الشيء الذي ينهى عنه، ويرفعه إلى أنظار المخاطبين، فيجمع لهم بين النهي عن الشيء بالقول والمشاهدة للمنهي عنه بالعين، فيكون ذلك أوعى للنفوس وأوضح في الدلالة على التحريم والمنع "([2])

إمساك الرسول بالشيء الذي يشبه به المعنى

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود قال : " بينما نحن عند رسول الله ρ في قريب ثمانين رجلاً من قريش، ليس فيهم إلا قرشي، لا والله ما رأيت صفحة وجوه رجال قط أحسن من وجوههم يومئذ . فذكروا النساء فتحدثوا فيهن، فتحدث معهم حتى أحببتُ أن يسكت، ثم أتيتُه فتشهّد ثم قال :

أما بعدُ يا معشر قريش فإنكم أهل هذا الأمر، ما لم تَعْصُوا الله تعالى، فإذا عصيتموه بعث إليكم من يلحاكم كما يُلحى هذا القضيب، لقضيب في يده، ثم لحا القضيب فإذا هو أبيضُ يصْلد "([3]).

وتظهر قمة السيميائية في لغة هذا الحديث، حيث آثر الرسول ρ في أسلوبه سيميائية اللفظ واللحظ والتصوير، كما هو واضح في التشبيه الذي ساقه ρ للمسلمين يحذرهم من أثر المعصية عليهم، فإذا عصوا الله بعث الله عليهم عدوهم فلحاهم كما يُلحي القضيب، وفيما أورده صاحب لسان العرب " فالتحوكم كما يُلتحى القضيب " وهو من لحوت الشجرة إذا أخذت لحاءها أي قشرها.([4]) ولم يقتصر الرسول ρ في بيانه واتصاله أن ذكر لهم لحاء الشجرة، بل أخذ يلحو لهم القضيب الذي بيده ليشاهدوا بأعينهم كيف يُنزع لحاؤه فيصير عاريًا مكشوفًا، وما في ذلك من تمثيل

([1]) – ابن ماجة ، سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، بيروت ، د .ت ، حديث رقم ٣٥٩٥ ، ٢ / ١١٨٩ .

([2]) – د . عبد الفتاح أبو غدّة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم ، ١٢٥ .

([3]) – الإمام أحمد ، مسند الإمام أحمد، مؤسسة قرطبة، القاهرة ، د . ت ، حديث رقم ٤٣٨٠، ١ / ٤٥٨ .

([4]) – ابن منظور ، لسان العرب ، لحا .

للمعنى لتبقى صورته في ذهنهم رادعًا لهم عن معصية الله، ومصبرًا إياهم على الاستمرار في طاعته والامتثال لأمره .

١– ٥ – الخط باليد

استخدم رسول الله ρ في لغته واتصاله وتوضيحه أمور الدين– التخطيط باليد على الأرض، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن جابر τ قال : كنا جلوسًا عند النبي ρ فخط بيده في الأرض خطًا هكذا أمامه؛ فقال: هذا سبيل الله عز وجل، وخط خطين عن يمينه، وخطين عن شماله، وقال : هذه سُبُل الشيطان، ثم وضع يده في الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(١)"(٢)

ويتجلى الاتصال السيميائي واللغة الإشارية في اللوحة الفنية والرسم الهندسي الذي خططه ρ بيده على التراب، ليجعل من خطوط هذا الرسم رموزًا وإشارات على المعاني التي يقصدها الرسول ρ من هذا الحديث، وكأن العبارة في هذا الحديث تأتي موضحة للإشارة التي جعلها الرسول ρ هنا أصلاً في البيان والاتصال .

١– ٦ – الإشاحة بالوجه

يعد الوجه موطنًا للإشارات الدالة؛ فإشارات العين، وعبوس الوجه، وطلاقته، وابتسامة الفم، وحركات الشفتين، والأسنان، والاستقبال بالوجه، أو الإشاحة والإعراض به – كلها إشارات دالة ومعهودة في التواصل اللغوي، وقد استخدمها رسول الله ρ في اتصاله وفي أحاديثه، ومن ذلك قوله تعالى:(عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَن جَاءهُ الْأَعْمَى)(٣) حيث عاتب الله رسوله في عبوسه وتوليه بوجهه عن مواجهة الصحابي عبد الله بن أم مكتوم رغم أنه كفيف، ونستنتج من ذلك أمرين : أولهما مدى الشفافية التي يرسخها الدين الإسلامي في قلوب المؤمنين، والأمر الثاني أن الإسلام والقرآن أعطى الإشارة أهمية الفعل والسلوك المؤثر في الاتصال .

---

(١) – الأنعام ، ١٥٣.

(٢) – الإمام عبد بن حميد الكسي، المنتخب من مسند عبد بن حميد ، تحقيق صبحي البدري ومحمود محمد خليل، مكتبة السنة ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، حديث رقم ١١٤١ ، ١ / ٣٤٥ .

(٣) – عبس ، ١، ٢ .

ومن الأحاديث التي جاء فيها إشاحة الرسول ρ بوجهه ما رواه لنا البخاري بسنده عن عدي بن حاتم أن النبي ρ ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها، ثم ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها،ثم قال اتقوا النار ولو بشق تمرة "([1]).

ولعل في إشارة الرسول ρ من المعاني ما وضحها الرسول ρ في تعوذه مرتين، فالإشاحة بالوجه والاستعاذة كلتاهما يفيد مدى التولي والإعراض عن النار والاستحماء منها .

١-٧- احمرار الوجه

كثيرًا ما ورد عن الرسول ρ أن احمرَّ وجهه، أو احمرَّت وجنتاه، أو احمرَّ وجهه وكأنما فقيء في وجهه حب الرمان – وذلك إذا غضب الرسول ρ عندما ترتكب حرمة من حرمات الله؛ وفي ذلك من التأثر الفطري والإشارات العفوية التي جاءت منه ρ دلالة أيضًا على معان وأحكام نبوية، ومن ذلك ما رواه النسائي بسنده عن أنس بن مالك، قال :" رأى رسول الله ρ نخامة في قبلة المسجد فغضب حتى احمر وجهه، فقامت امرأة من الأنصار فحكتها وجعلت مكانها خلوقًا فقال رسول الله ρ ما أحسن هذا !"([2]).

ومن أحاديثه ρ التي جاء بها احمرار الوجه تعبيرًا عن شدة غضبه ما رواه ابن ماجة بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: " خرج رسول الله ρ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يُفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: بهذا أمرتم ؟ أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم "([3])

وكلا الحديثين وغيرهما كثير من بابهما– يدل على مدى ممارسة الرسول ρ للإشارات الفطرية في دعوته وأحاديثه، لما يراه فيها ρ من تأكيد لفكرته وبيان مدى خطورة الفعل أو القول الذي يريد التنبيه عليه.

١-٨- التبسم والضحك

([1]) – الإمام البخاري ، صحيح البخاري ، حديث رقم ٦١٩٥ ، ٥ / ٢٤٠٠ .

([2]) – النسائي، سنن النسائي، حديث رقم ٧٢٨ ،٥٣/٢ .

([3]) – ابن ماجة، سنن ابن ماجة، حديث رقم ٨٥ ، ٣٣/١ .

كما استخدم الرسول ρ احمرار الوجه والعبوس والإشاحة به تعبيرًا عن الغضب والاعتراض، استخدم في المقابل طلاقة الوجه والابتسامة والضحك تعبيرًا عن رضاه وإعجابه، وكلها إشارات فطرية مارسها ρ تزكيةً لفكرته وتأكيدًا لها، ومن أحاديثه الدالة على ذلك، ما رواه لنا البخاري بسنده عن علقمة بن عبد الله قال: "جاء رجل إلى النبي ρ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم: إن الله يُمسك السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول أنا الملِك أنا الملِك، فرأيت رسول الله ρ ضحك حتى بدت نواجذه. "([1])

١-٩- الجلوس بعد اتكاء

تعد هذه الحركة (الجلوس بعد اتكاء أو وقوف) واحدة من الهيئات المختلفة التي تأخذها وضعية الجسم، ويستخدمها المتكلم دائمًا في التعبير أو الإشارة بها إلى معنى من المعاني، كأن يعبر عن غضبه، أو عن فرحه أو عن إعجابه أو عن استنكاره أو عن تقديره واحترامه أو غير ذلك من المعاني التي نلمسها متبادلة في عرف الجماعة اللغوية . فالجلوس والقعود والوقوف بهيئاته والاتكاء والمشي والركوع والسجود أو غير ذلك من الهيئات أو الألحاظ الجسمية تمثل إشارات أو حركات أو بمصطلح د . فاطمة محجوب نظائر الحركات Para kines أو باراكينات([2]) لها دلالات لغوية واتصالية تأخذها من سياقها الواردة فيه .

وقد فعل الرسول ρ هذه الحركة أو الهيئة تعبيرًا عن الغضب الشديد، وذلك في حديثه الذي يرويه لنا الإمام البخاري عن ابن أبي بكرة عن أبيه، قال : " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثًا) (قالوا بلى يا رسول الله) قال : " الإشراك بالله وعقوق الوالدين (وجلس وكان متكئًا) فقال : ألا وقول الزور " قال فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت .([3])

فجلوس الرسول ρ بعد أن كان متكئًا، إشارة منه ρ صوَّرها تحذيره من قول الزور، ليعطي هذه الكبيرة خطورة وتحذيرًا خاصًّا، وضح حجم هذا التحذير من

([1]) – البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم ٦٩٧٩، ٢٦٩٧/٦ .

([2]) – د . فاطمة محجوب، دراسات في علم اللغة ، ٢٠٢ .

([3]) – البخاري ، صحيح البخاري ، حديث رقم ٥٦٣١ ، ٥ / ٢٢٢٩ .

جلوسه ρ بعد أن كان في راحة الاتكاء، ومن تكراره التحذير بالعبارة . وهذه المزاوجة في التحذير بالعبارة والإشارة دليل على خطورة قول الزور من ناحية، ومن ناحية أخرى دليل على التبادل والتلازم بين الإشارة والعبارة في اللغة والاتصال .

ومن ثم يتضح لنا من هذا المبحث مدى اهتمام الرسول ρ وحرصه البالغ على تلازم الإشارة للعبارة في لغته واتصاله وفي تنبيهه على المعاني وتأكيده على الأحكام وتوضيحه المقاصد كما يتضح لنا أنه ρ استخدم الإشارة بأنواعها : الفطرية والمكتسبة، الحركات والهيئات، في التدليل بها على معانيه وأحكامه. ومما يتضح لنا كذلك أن الرسول ρ كما زاوج في تعبيره بين العبارة والإشارة، استغنى أحيانًا بواحدة عن الأخرى، ومرةً كان يقدم هذه وأخرى يقدم تلك، وتارة يوضح هذه بتلك وتارة أخرى يفعل العكس. وكل هذا دليل من الرسول ρ وهو أفصح العرب قاطبة وقد أوتي جوامع الكلم–على أن لكل من العبارة والإشارة مكانتها وأهميتها التي لا تنكر ولا يمكن أن تُهمل عند ممارستنا للغة والاتصال أو عند تعبير المتكلم عن معانيه ومقاصده أو عند فهم المخاطب لها.

٢– سيميائية اللفظ في لغة الحديث وأثرها في المعنى

لما كانت السيميائية هي علم دراسة الإشارة والرموز الدالة في سياقها أو داخل نسق أو نظام معين– وقد طبقنا هذا على الحديث النبوي فيما يخص كثيرًا من الإشارات والحركات الجسمية والهيئات والألحاظ التي لازمته ρ عند صدور الحديث عنه؛ لكننا في هذا المبحث لا نستطيع أن نطبق السيميائية على كل ألفاظ الحديث النبوي– وإن كانت كل الألفاظ في حقيقتها تدل على معانيها دلالة إشارية– وإنما سنقتصر في تطبيق السيميائية على الألفاظ التي تبرز فيها السيميائية أو تتجلى فيها الرمزية والمجازية في دلالتها على معانيها، وتتبلور هذه الألفاظ في ألفاظ الجسد التي استخدمها ρ بشكل رمزي أو بشكل تجسيدي أو تمثيلي للمعنى، ويمكن أن نوضح ذلك من خلال نماذج من أحاديثه ρ ، على النحو الآتي:

تتجلى سيميائية الألفاظ في الأحاديث النبوية التي عبّر فيها الرسول ρ بألفاظ الجسد ليدل بها على معان مجازية أو تلك التي استخدم فيها ρ ألفاظ التشبيه والتمثيل، وهاك بعضًا من هذه الأحاديث:

روى النسائي بسنده عن معاذ بن جبل، قال: " كنت مع النبي ρ فأصبحت قريبًا منه ونحن نسير فقلت يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويبعدني عن النار، قال لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه .. حتى قال ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه قلت بلى يا رسول الله، قال: " رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد "([1])

وذروة السيميائية تتبلور في هذا الحديث؛ لأنه يرمز ويشير بعبارات مختصرة إلى معانٍ كبيرة ومقاصد عظيمة، والسبب في اشتمال الحديث– رغم اختصار عباراته– على بيان أساس الإيمان بالله وعموده وأعلى مراتبه، هو ما يتضمنه هذا الحديث من سيميائية متمثلة في ألفاظ مثل كلمة (رأس– عموده– ذروة سنامه) وكلها ألفاظ ذات معان حسية: تجسيدية أو تمثيلية، شكلت معاني الحديث ومقاصده في صورة محددة الأبعاد واضحة القسمات، حيث يشتمل الحديث على ثلاث صور جزئية، كل صورة منها تمثل إشارة أو حركة kine ترمز إلى معنى.

هذا، وتكثر الأحاديث التي استخدم فيها الرسول ρ لفظ(مَثَل) الذي يفيد المماثلة والتشبيه الذي يجسد المعنى ويصوره في ذهن المخاطب في صورة حسية حركية إشارية. وبعبارة أخرى يصل المعنى ويحدد القصد بشكل سيميائي. ومن هذه الأحاديث:

ما رواه الإمام مسلم بسنده عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ρ : " مَثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"([2])

ويعد هذا الحديث صورة سيميائية حية لما نحن بصدد إثباته في هذا المبحث وهو بيان سيميائية الحديث في ألفاظه من خلال ما نجده من استخدام الرسول ρ لألفاظ الجسد وأعضائه وحركاته وحواسه، وما تعكسه هذه الألفاظ من تجسيد للمعاني وتمثيل للأحكام . ويتجلى قصد هذا المبحث في مثل هذا الحديث الذي يصرّح فيه الرسول ρ بمماثلة الجماعة المؤمنة في تعاطفهم وتراحمهم بالجسد الواحد الذي

([1]) – النسائي، سنن النسائي الكبرى، حديث رقم ١١٣٩٤ ، ٤٢٨/٦ .

([2]) – مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم ٢٥٨٦ ، ١٩٩٩/٤ .

تتداعى أعضاؤه بالسهر والحمى عندما يشتكي منها عضو واحد، وما في هذا التشبيه من التجسيد والتصوير، ليبقي المعنى في ذهن المخاطَب مرموزًا إليه بإشارة أو حركة عضوية أو هيئة جسمية، وفي ذلك سيميائية لفظية مارسها الرسول ρ في تعبيره ونمارسها نحن في الفهم والتلقي .

ومن هذه الأحاديث كذلك حديثه ρ الذي رواه لنا الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ρ قال : " إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة . قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين".([1])

وهذا الحديث في مجمله تشبيه يصور لنا أن الأنبياء والرسل لبنات في بناء الإسلام الجميل، وأن كل نبي يمثل لبنة في هذا البناء، وأن الرسول ρ يمثل آخر لبنة، أتم الله بها بناء الدين.. وتبرز السيميائية اللفظية هنا فيما يمثله هذا التشبيه من أن الدين واحد وأن الدين عند الله الإسلام، وأن كل الأنبياء وإن اختلفت شرائعهم – قد أتوا بدين واحد وهو الإسلام، وأن الرسول ρ هو خاتم الأنبياء والذي أتم الله به دينه للعالمين . وكل هذه المعاني ممثلة ومصورة في شكل رسوم وإشارات ينسجها المخاطب في ذهنه وتصوره ليستدل بها على معاني الحديث ومقاصده، وفي ذلك من السيميائية ما لا يخفى .

ومن ثم تتجلى لنا سيميائية الألفاظ في الحديث النبوي فيما يمكن أن نسميه بتجسيد المعنى أو تمثيله أو التجوز فيه، وذلك باستخدام الجسد وأعضائه وحواسه والأشياء المحسوسة في صورة كنائية أو مجازية أو تشبيهية أو تمثيلية . لأن هذه الألفاظ فقط وليست كل ألفاظ اللغة – هي التي تعكس لك المعنى بشكل سيميائي : غير مباشر أو رمزي أو إشاري أو حركي أو غير ذلك من أوجه السيميائية . وهذا ما وجدناه ومثلنا عليه في لغة الحديث النبوي الشريف .

ج – السيمياء في الحديث ومناطات الحكم الفقهي

([1]) – البخاري ، صحيح البخاري ، حديث رقم ٣٣٤٢ ، ٣ / ١٣٠٠ .

يهتم هذا المبحث بأثر سيميائية اللفظ واللحظ في الحديث النبوي – على علماء أصول الفقه والفقهاء في بناء القاعدة الأصولية أو في استنباط الحكم الفقهي؛ الأمر الذي يعكس – إذا ثبت لنا – مدى تجذر الإشارة الجسمية والهيئة البدنية فضلاً عن السيميائية اللفظية في صياغة معاني الحديث وتحديد مقاصده واستنباط أحكامه .

وسوف يتناول هذا المبحث عدة أمور منها : الأمر الأول كيف أمر الرسول ρ أن تجزئ الإشارة عن القول والفعل في أمور : الإيمان، والعبادة، والثواب والعقاب؛ لأن في بيان ذلك عن الرسول ρ جاءت أهمية الإشارة لدى الفقهاء في استنباط الحكم الشرعي، وهذا هو الأمر الثاني، ولدى علماء أصول الفقه في تحديد مقاصد النص وبيان مناطات أحكامه وهذا هو الأمر الثالث . ومعنى ذلك أن هذا المبحث يعالج في ثلاثة مواضع كالتالي :

١- الإشارة تجزئ عن الفعل والعبارة في أمور الدين .

٢- الإشارة قرينة من قرائن فهم الحديث واستنباط أحكامه .

٣- الدلالة السيميائية أحد مناطات الحكم الفقهي عند علماء الأصول .

١- الإشارة تجزئ عن الفعل والعبارة

لقد أعطى الرسول ρ أهمية للإشارة عندما استغنى عن العبارة في بعض أحاديثه على نحو ما أسلفنا بيان ذلك، بل جعلها تجزئ عن العبارة في الإيمان بالله والنطق بالشهادتين، مثل الجارية السوداء التي جئ بها إلى الرسول ρ فسألها أين الله ؟ فأشارت إلى السماء بإصبعها، وحين سألها من أنا فأشارت إليه وإلى السماء يعني أنت رسول الله ρ فقال ρ أعتقها فإنها مؤمنة.([1])

كما أجزأ الرسول ρ الإشارة عن الفعل في الحج، على نحو ما سنَّه لأمته في الإشارة إلى الحجر الأسود بدلاً من تقبيله، عندما أوصى سيدنا عمر بقوله: " إنك رجل قوي لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا فاستقبله فهلل وكبر."([2]) كما أومأ ρ على دابته مصليًا مجزئًا ذلك عن ركوعه

([1]) – أبو داوود، سنن أبي داوود، حديث رقم ٣٢٨٤ ، ٢٥٠/٢ .

([2]) – الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، حديث رقم ١٩٠ ، ١٢٨/١ .

وسجوده.([1]) كما أثَّم ρ من اغتاب أخاه بكلمة أو بإشارة، كما حدث مع السيدة عائشة عندما ذكرت السيدة صفية بكذا وكذا(تعني قصيرة) وكما في قوله تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ)([2]).

وفي المقابل دعا رسول الله ρ إلى طلاقة الوجه والابتسامة في وجه أخيك، فقال فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي ذر الغفاري، قال، قال لي النبي ρ :" لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"([3]) وقال أيضًا فيما رواه لنا ابن حِبَّان في صحيحه بسنده عن أبي ذر قال، قال رسول الله ρ تبسمك في وجه أخيك صدقة "([4]).

وكل هذه الأحاديث وغيرها كثير تبين لنا مدى ما للإشارة من أهمية لا تقل في ذلك عن أهمية الكلام أو أهمية الفعل أو السلوك؛ إذ نظر إليها الرسول ρ على أنها مناط ثواب وعقاب، ولم تكن كذلك إلا لأنها دالة دلالة العبارة ومؤثرة تأثير الفعل .

٢ – الإشارة قرينة لفهم الحديث واستنباط أحكامه

اعتمد الفقهاء بشكل رئيسي على الإشارة في فهم الحديث النبوي واستنباط الأحكام الفقهية منه، وذلك على نحو ما نجده فيما قرروه من أحكام من مثل :

أ – جواز ركوب الاثنين دابة واحدة، وذلك حكم مستنبط من الحديث الذي رواه عبد الله بن عباس: كنت ردف النبي ρ ... "([5])

ب – جواز الصلاة في حالة ركوب الدابة، والاستغناء بالإيماء عن الركوع والسجود، وذلك مستنبط من الحديث الذي رواه لنا النسائي عن سعيد بن جبير عن ابن عمر أن النبي ρ كان يصلي على دابته وهو مقبل من مكة إلى المدينة .([6])

([1]) – النسائي، سنن النسائي، حديث رقم ٤٩١ ،٢٤٤/١ .

([2]) – الهمزة ١ .

([3]) الإمام مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم ٢٦٢٦ ، ٢٠٢٦/٤ .

([4]) – ابن حبان، صحيح ابن حبان(صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣ ،حديث رقم ٤٧٤ ،٢٢١/٢ ،

([5]) – الإمام أحمد، المسند ، حديث رقم ٢٧٦٣ ، ١ / ٣٠٣ .

([6]) – النسائي ، سنن النسائي، حديث رقم ٤٨٧٥ ، ٢ / ٦٨٥ .

ج – إجزاء الإيماءة بوجود الله عن النطق بالشهادتين، وذلك مستنبط عن الحديث الذي رواه أبو داود بسنده عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ρ بجارية سوداء فقال يا رسول الله : إن عليّ رقبة مؤمنة، فقال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء بإصبعها . فقال لها فمن أنا، فأشارت إلى النبي ρ وإلى السماء، يعني أنت رسول الله ρ . فقال : أعتقها فإنها مؤمنة ."([1])

ومن ثم يَستدل الفقهاء من أوصاف الرسول ρ وشمائله وسماته البدنية وحركاته وإشاراته وملابسه وطريقة كلامه وسلامه وحواره، وحاله في السفر والحضر وفي طريقته في المشي والوقوف والنوم والجلوس والقعود وغير ذلك من أحوال – يستدلون منها أحكامًا فقهية وسُننًا فعلية وإقرارية .

٣ – الدلالة السيميائية والإشارة ومناطات الحكم الفقهي

اعتمد علماء أصول الفقه عدة مناطات لفهم النص واستنباط أحكامه، لأنهم صرحوا في غير موضع أن العبرة من النص ما يُستدل منه على معنى، وبذلك يصبح النص غير مقتصر على الألفاظ، بل يشمل كل ما نستدل منه على المعنى والقصد، فيشمل : الألفاظ والإشارات والمقام والسياق وقرائن الحال والعناصر المشاركة في الخطاب . وهذا ما قرره الإمام الشافعي في حديثه عن أنواع الخطاب، قال : " ومنه ما يُبين سياقُه معناه "([2]) . كما صرح ابن قيم الجوزية بأن: " الألفاظ لم تقصد لذواتها، وإنما هي أدلة يُستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق كان، عمل بمقتضاه سواء كانت بإشارة أو كتابة أو إيماءة أو دلالة عقلية أو قرينة حالية "([3]) . وأصّل الإمام الشاطبي لعلم المقاصد الشرعية عندما قال : "مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال : حال الخطاب من جهة نفسه، الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع "([4]).

([1]) – أبو داود ، سنن أبي داود، حديث رقم ٣٢٨٤، ٢ / ٢٥٠ .

([2]) – الشافعي ، الرسالة ، تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ، ١٩٤٠، ٦٠ .

([3]) – ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة ، ١٩٥٥، ٢/ ٢١٨ .

([4]) – الشاطبي ، الموافقات، تعليق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت ، د. ت ، ٣ / ٢٥٨.

ومن هذه النصوص السابقة يتبين أن علماء الأصول نظروا إلى النص نظرة شاملة لكل جوانبه المؤثرة في تحديد معانيه واستنباط مقاصده بما في ذلك الإشارة، على ما ذكرها أحدهم مناطًا مستقلاً في الاستدلال، وذكرها بعضهم ضمن مناط المتكلم أو المخاطب. وقد أفاض د . نعمان جغيم في شرح نص الإمام الشاطبي في بيان مقتضيات تحليل الخطاب ومقاصد المتكلم حيث ذكر : الإشارة ضمن لوازم المتكلم في كلامه، وذكر نماذج كثيرة على إشارات الرسول ρ في أحاديثه.([1])

ومن الأحاديث التي جاء الرسول ρ بالإشارة الموضحة لمقصد الحديث، ما رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ρ قال : " يقبض العلم ويظهر الجهل والفتن ويكثر الهرْج . قيل يا رسول الله وما الهرْج ؟ فقال : هكذا، بيده فحرفها كأنه يريد القتل . ([2])

فدلالة قرينة الإشارة وهي من قرائن المتكلم ولوازم الخطاب وليست من الألفاظ – تعد في هذا الحديث مناط المعنى والاستدلال .

ومن تجليات السيميائية ما أبدع فيه علماء أصول الفقه حول قضايا اللفظ وأقسامه: المفرد والمركب، والحقيقة والمجاز، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، والأمر والنهي، وكذلك مباحثهم عن المعنى من حيث : ظهوره وخفاؤه، وأصليّته وتبعيّته، وذلك لأن هذه التقسيمات للفظ والمعنى وإدراكهم للفرق بين : المعنى الأصلي الإفرادي الذي جعلوه أصلاً في الاستدلال، والمعنى السياقي التبعي الذي يحمل معاني زائدة عن المعنى الأصلي، فجعلوه مناطًا فرعيًّا يؤخذ في الاعتبار عند الاستدلال، لأن ثمة مواضع تكون الدلالة التبعية أو السياقية أو السيميائية هي المقصودة .([3])

وبذلك تأخذ الإشارةُ وسيميائية الدلالة مكانتهما لدى الفقهاء في فهمهم الحديث النبوي واستنباطهم أحكامه الفقهية، ولدى علماء أصول الفقه في مباحثهم الدائرة حول

([1]) – د . نعمان جغيم، طرق الكشف عن مقاصد الشارع، دار النفائس، الأردن، ٢٠٠٢، ٨٩ وما بعدها .

([2]) – البخاري ، صحيح البخاري ، حديث رقم ٨٥، ١ / ٣٦ .

([3]) – انظر : الشاطبي ، الموافقات ، ٢ / ٦٣ ، وانظر : د . عبد الكريم مجاهد، الدلالة اللغوية عند العرب ، دار الضياء ، الأردن، ١٩٨٥ ، ٢١ .

: مقاصد الشارع وقضية اللفظ والمعنى وقضية الاستدلال وأنواع الأدلة ومراتبها ومناطات الأحكام وقرائنها . هذا، وقد أخذت الإشارة والدلالة السيميائية مكانتهما من قبل في حديث رسول الله ρ عندما استخدمها مصاحبة للألفاظ، وآثرها أحيانًا على اللفظ، مما جعل رواة الحديث أنفسهم يأخذونهما بعين الاهتمام؛ الأمر الذي جعلنا نقول بملء فينا : بأن لغة الحديث النبوي الشريف تتصف بالسيميائية في ألفاظها وألحاظها، وأن للإشارة والحركة الجسدية وسيميائية اللفظ والتعبير دورًا لا يُنكر في فهم الحديث النبوي واستنباط أحكامه وتحديد مقاصده . وهذا ما كانت الدراسة تسعى إلى إثباته للقارئ، ألا وقد أثبتته له بالأدلة، فإنها تستطيع الآن أن تطوي صفحات المناقشة والشرح، لتفرغ إلى صفحة النتائج والتوصيات .

نتائج الدراسة

وبعد أن أدارت الدراسة الحوار حول مدى سيميائية اللغة والاتصال وأثر هذه السيميائية في المعنى، مع تطبيق ذلك على الحديث النبوي الشريف – خلصتْ إلى عدة نتائج، أدرجتها ضمن ثناياها وفي أعقاب مباحثها، ويمكن أن نجمل بعض هذه النتائج فيما يلي :

١- أعادت الدراسة النظر في حد العلامة ابن جني للغة بأنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " ؛ لأن كلام ابن جني يمكن حمله على أنه وصف للغة وليس حدًّا لها، لأن حدها الجامع: هي عملية فكرية نفسية عضوية، تنفعل فيها سائر أعضاء جسم الإنسان للتعبير عن أفكاره ومشاعره والتأثير بهما في المخاطب عاطفيًّا وفكريًّا وسلوكيًّا؛ ومعنى ذلك أن اللغة ألفاظ وألحاظ، أصوات ونغمات وإشارات وحركات وهيئات، تتعاون جميعًا لتحقيق معاني الخطاب ومقاصد المخاطِب .

٢- حررت الدراسة مفهوم (الاتصال)، وعلاقته باللغة؛ فليس ثمة اتصال لغوي واتصال آخر غير لغوي، لأنه إذا كانت اللغة تشمل الألفاظ والنغمات والإشارات والحركات والهيئات، فإنها تُعد الوسيلة الوحيدة للاتصال،لأن المرسل مهما استخدم قناة اتصال:كتابية أو شفوية أو آلية فهو يستخدم اللغة:ألفاظها فيكون ثمة اتصال لفظي Verbal Communication ؛ أو ألحاظها فيكون ثمة اتصال غير لفظي Non –Verbal Communication أو يستخدم اللغة ألفاظها وألحاظها معًا فيكون ثمة اتصال لغوي فعال، وتكون اللغة عندئذ قد مُورست بشكل متكامل تؤدي بها وظيفتها وهي (الاتصال) . ومعنى ذلك أن اللغة لا تُمارس ببلاغة إلا إذا أدت وظيفتها الأساسية وهي الاتصال، وأن الاتصال لا يُؤدى بفعالية إلا عن طريق وسيلته الوحيدة وهي اللغة المتكاملة (الألفاظ والألحاظ) وهي ما أسمتها الدراسة (باللغة الاتصالية)، وهي نقطة التقاء بلاغة اللغة بفعالية الاتصال .

٣- حررت الدراسة المصطلحات والمفاهيم ووجهات النظر الآتية:

٣- أ- مصطلح Non –Verbal Communication الذي ترجمه بعض الباحثين بالاتصال غير اللغوي، والأدق ترجمته بالاتصال غير اللفظي، لأن كلمة Verbal معناها في اللغة الإنجليزية (لفظي أو شفوي)، فضلاً عن أنه ليس عندي اتصال لغوي وآخر غير لغوي .

٣- ب- اعتراض بعض الباحثين على تعريف اللغة بأنها: وسيلة الاتصال بحجة أن ثمة وسائل اتصال أخرى غير لغوية، وأن الاتصال ليس الوظيفة الوحيدة للغة، وفي هذا الاعتراض نظر؛ لأننا لو نظرنا إلى اللغة على أنها تشمل الألفاظ والألحاظ لقلنا إنها وسيلة الاتصال الوحيدة وإن اختلفت قناتها من كتابية إلى شفوية إلى آلية . ولو نظرنا إلى أي أغراض اللغة من: تعبير عن المشاعر والأفكار والحاجات ونقل التراث والتسلية وغير ذلك من أغراض لوجدناه يرتبط بصلة بالوظيفة الكبرى للغة وهي الاتصال .

٣- ج- تعريف بعض الباحثين الاتصال غير اللفظي بأنه: " تعبير أو فعل أو وضع جسمي اصطلحت عليه الجماعة اللغوية، يصاحب الكلام أو لا يصاحبه، ويدل على معنى يقصده المتكلم ويدركه المستمع "؛ حيث أثبتت الدراسة أنّ ثمة إشارات وهيئات وحركات تصدر عن المخاطِب بشكل عفوي غير مصطلح عليه، وتدل على معنى يدرك المخاطَب أنه في غاية الفائدة له، وإن كان المخاطِب لا يقصده، بل يحاول إخفاءه .

٣- د- مذهب بعض الباحثين إلى أن السيمياء عند العرب رادفت مفهومهم عن الدلالة، فقصروها بذلك على سيميائية اللفظ دون سيميائية اللحظ (الإشارات والحركات والهيئة الجسمية)، وعلى السيميائية المباشرة دون السيميائية الرمزية؛ ونسوا سيميائيات العرب وإسهاماتهم في قيافة الأثر وعيافة البشر وتفرسهم أحوال الناس الظاهرة لمعرفة أمزجتهم وأحوالهم الباطنة، كما هو الحال عند: الرازي، فضلاً عن مباحث اللغويين والبلاغيين والفقهاء وعلماء أصول الفقه عن: الدلالة وأقسامها، ومناطات الاستدلال، وقرائن المعنى، وشواهد الحال، ووسائل البيان، حيث تعد الإشارة واحدة من كل ما سبق .

٣- هـ- عدم إعطاء بعض الباحثين للإشارة دورها في فهم معاني الخطاب ومقاصد المخاطِب، وذلك عندما أطلقوا على (الإشارة) مصطلح Para Language أو مصطلح Mita Language ، وما يعنيه المصطلحان من كون الإشارات مجرد مصاحبة للكلام أو تمثل خلفيته أو ما ورائياته. والحق أننا لا نستطيع أن نفصل اللفظ عن اللحظ عند ممارسة اللغة تعبيرًا أو فهمًا، فهي كل

متكامل ، فقد تصاحب الإشارة اللفظ، وقد تنوب عنه أو يُستغنى بها عنه، وقد تختصره، وقد تشرحه وتوضحه وتؤكده،وقد تمثله وتجسده وتصوره في نفس المخاطب؛ليكون المعنى بذلك أعلق بالنفس وأبقى في الذهن.

٤- أزالت الدراسة الغموض واللبس الذي شاب مصطلح السيميائية؛ وذلك عندما أصّلت للفظه ومفهومه في كل من التراث العربي واليوناني وتتبعت تطوره عند المحدثين عربًا وأجانب، وأبانت العلاقة التي تربط السيميائية Simiology بكل من علم الفراسة Physiognomy وعلم الكينات أو علم اللغة الحركي Kinecics ، وعلم الاتصال غير اللفظي Non –Verbal Communication ، وكيف بدأت السيميائية عند العرب والأجانب بعلم الفراسة الذي يعنى بمعرفة أحوال النفس الباطنة من خلال أحوالها الظاهرة، وبما أبدعه الجاحظ في مبحثه عن(الإشارة ووسائل البيان)، وابن جني في مبحثه عن الإشارة (شواهد الحال)، وما سبق به بيردوسل عن علم الكينات وما عرف عند مهرابيان وهندل وألن بيز بالاتصال غير اللفظي، وما عرف عند كندراتوف بالسيميوطيقا، وعند بيير جيرو ودي سوسير بالسيميولوجيا، ثم أخذت السيميولوجيا عند أمبرتو إيكو منحىً منهجيًّا في تحليل النصوص . ومعنى ذلك أن السيميولوجيا أو السيميائية بدأت من مجرد الفراسة والاستدلال بالإشارة على مشاعر المتكلم ثم تطورت لتصير علم الاستدلال بكل الإشارات الدالة على معانيها في الكون(نظرية البيان عند الجاحظ)، ثم برزت السيميائية اللغوية، وسيميائية الاتصال، وأخيرًا تجلت السيميائية منهجًا في تحليل النص بوصفه حوارًا له أطرافه، ومشهدًا لغويًّا له عناصره .

٥- دللت الدراسة على أهمية- إن لم يكن ضرورة- دراسة الإشارة ودورها في فهم معاني الحديث النبوي وتحديد مقاصده واستنباط أحكامه؛ لأن ثمة أحاديث لا يمكن فهم معانيها وتحديد مقاصدها إلا بتحديد نوع الإشارة ودلالتها في سياقها اللغوي والثقافي .

٦- أسفرت الدراسة عن أهمية دراسة سيميائية الألفاظ في الحديث النبوي ودورها في فهم معانيه وتحديد مقاصده؛ لأن ثمة أحاديث يعود الاستدلال فيها إلى الدلالة السيميائية وليست الإفرادية أو المباشرة .

٧- بينت الدراسة أن الرسول ρ استخدم في أحاديثه وبيانه واتصاله معظم وسائل البيان الإشاري أو السيميائي: اللفظية واللحظية، المفردة والمركبة، العفوية والمكتسبة، الهيئات والحركات، العضوية أو بشيء خارجي؛ لأن في ذلك جذبًا للانتباه، وتنويعًا للأسلوب، وكسرًا للملل، وتنبيهًا على عظمة الأوامر وخطورة النواهي، وتوضيحًا للمعاني، وبيانًا للمقاصد .

٨- كشفت الدراسة عن مدى اهتمام الرسول ρ بوصف الإشارة والسيمياء اللفظية واللحظية- أدلةً على معاني أحاديثه وأحكامها وحكمها؛ الأمر الذي جعل كلا من رواة الأحاديث، والفقهاء، وعلماء أصول الفقه- يأخذونها بعين الاعتبار عند رواية الحديث أو شرحه أو استنباط أحكامه أو الاستدلال به .

مراجع البحث

أولاً: القرآن الكريم .

ثانيًا: المراجع العربية.

١- الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، مؤسسة قرطبة، القاهرة، د.ت .
٢- الألباني، السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض، د.ت .
٣- ألن بيز، لغة الجسم، ترجمة سمير شيخاني، دار الآفاق الجديدة، لبنان، ١٩٩٧م .
٤- أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة د. أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١ .
٥- البخاري، صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت،١٩٨٧م .
٦- د. بلقاسم دفة، علم السيمياء في التراث العربي، مجلة التراث العربي، دمشق، ع٩١ ، سبتمبر٢٠٠٣م .
٧- أبو بكر البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة، ١٩٩٤م .
٨- بيير جيرو، علم الإشارة – السيميولوجيا- ترجمة منذر عياشي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٨م .
٩- الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت .
١٠-الجاحظ، البيان والتبيين،تحقيق عبد السلام هارون، الخانجي، القاهرة،١٩٦٩م.
١١-الجاحظ، الحيوان، تحقيق فوزي عطوى، دار صعب، بيروت، ١٩٨٢م.
١٢-جاك جريفن، كيف تقولها في العمل، ترجمة مكتبة جرير، السعودية،٢٠٠٠م.
١٣-جرجي زيدان، علم الفراسة الحديث، دار الجيل، لبنان، ١٩٨٢م.
١٤-د. جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، عالم المعرفة، الكويت، ع١٤٥، يناير،١٩٩٠م.
١٥-ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، د.ت .

١٦–جوناثان كلر، دي سوسير، أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات، ترجمة د. عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة،٢٠٠٠م.
١٧–الجوهري، الصحاح، مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
١٨–ابن حبان، صحيح ابن حبان(صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.
١٩–حنون مبارك، دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧م.
٢٠–أبو حيان، البحر المحيط، الرياض، السعودية، ١٩٧٠م.
٢١–الدار قطني، سنن الدار قطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٦م.
٢٢–أبو داود، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، د.ت .
٢٣– الرازي، الفراسة، منشور ضمن كتاب الفراسة عند العرب، يوسف مراد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.
٢٤– ابن رشيق، العمدة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٦٣م.
٢٥–د. سمير استيتيّة، اللغة وسيكولوجية الخطاب بين البلاغة والرسم الساخر، اللجنة الوطنية العليا، الأردن، ٢٠٠٢م.
٢٦–الشاطبي، الموافقات، تعليق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
27–الشافعي، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٠م.
٢٨–شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، السياسة في علم الفراسة، القاهرة، ١٩١٤م.
٢٩–صائل رشدي شديد، عناصر تحقيق الدلالة في العربية، الأهلية للنشر، الأردن، ٢٠٠٤م.

٣٠–د. عبد الحافظ محمد سلامة، وسائل الاتصال وأسسها النفسية والتربوية، دار الفكر، الأردن، ١٩٩٣م.
٣١–الإمام عبد بن حميد الكسي، المنتخب من مسند عبد بن حميد، تحقيق صبحي البدري ومحمود محمد خليل، مكتبة السنة، القاهرة، ١٩٨٨م.
٣٢–د. عبد الفتاح أبو غدة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م.
٣٣– عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨ م.
34–عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعارف، بيروت، ١٩٨٢م.
٣٥–د. عبد الكريم مجاهد، الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء، الأردن،١٩٨٥م.
٣٦–د. علي زيعور، اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظي في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩١م.
٣٧–د. فاطمة محجوب، دراسات في علم اللغة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م.
٣٨–الفيروزأبادي، القاموس المحيط، دار الكتب المصرية ١٣٥٢هـ .
٣٩–ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٥م.
٤٠–د. كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩١م.
٤١–كندراتوف، الأصوات والإشارات، ترجمة شوقي جلال، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.
٤٢–ابن ماجة، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٤٣-الإمام مالك، موطأ مالك، تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار القلم، دمشق، ١٩٩١م.
٤٤-د. محروس محمد إبراهيم، تداوليات الخطاب وضوابط الرواية والتلقي، مجلة علوم اللغة، مكتبة غريب، القاهرة، مج١٢،ع٢، مارس ٢٠٠٧م.
٤٥-د.محروس محمد إبراهيم وآخرون، مهارات الاتصال بين النظرية والتطبيق، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، الإمارات،٢٠٠٣م.
٤٦-د. محمد إقبال عروي، السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج٢٤، ع٣،١٩٩٦م.
٤٧-د. محمد الأمين موسى، الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، دار الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات، ٢٠٠٣م.
٤٨- د. محمد سالم سعد الله، مملكة النص، التحليل السيميائي للنقد البلاغي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٧م.
٤٩-د. مدحت محمد أبو النصر، لغة الجسم دراسة في نظرية الاتصال غير اللفظي، مجموعة النيل العربية، القاهرة، ٢٠٠٦م.
٥٠- د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت،٢٠٠٥م.
٥١- الإمام مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
٥٢- المصطفى شادلي، دراسة سيميائية لقصيدة شعرية عربية معاصرة، مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، ع١٢، ١٩٨٦م.
٥٣- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
٥٤- منير البعلبكي، المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩م.
٥٥- الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت .
٥٦-د. نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، الكويت، سبتمبر١٩٧٨م.

٥٧–د. نـزار النجـديتي، مفهـوم التلقـي مـن خـلال الأنمـوذج التواصـلي لنظريـة زيجفريد شميث، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج٤، ٢٠٠٧م.
٥٨–د. نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٦م.
٥٩–د. نصر حامد أبو زيد، العلامات في التراث، ضمن كتاب أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات، دار إلياس العصرية، القاهرة، ١٩٨٦م.
٦٠–د. نعمان جغيم، طرق الكشف عن مقاصد الشارع، دار النفائس، الأردن، ٢٠٠٢م.
٦١–النووي، شرح النووي على صحيح مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، دار إحياء التراث، بيروت،١٣٩٢هـ .
٦٢–د. يوسف مراد، الفراسة عند العرب، ترجمة د. مراد وهبة، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.

ثالثًا: المراجع الأجنبية

1- Hindel , Non – Verbal Communication , 1972, Cambridge University Press .
2- Todorov , Theories of the Symbol , 1982, Tra , Catherine Porter , Cornell Uneversity , Ithaca , New york .
3- Bloom Field, 1995, Language , Chicago .
4- Mario , Pei , The Story of Language , 1949 , Philadelphia, U . S . A .

ملخص البحث

سيميائية اللغة والاتصال وأبعاد المعنى

دراسة تطبيقية على الحديث النبوي

تتلخص هذه الدراسة في أنها أدارت المناقشة والحوار حول مباحث ثلاثة، وهي :

المبحث الأول: مصطلح السيميائية ومفهومه وأصوله التراثية عند العرب واليونان، وكيف نطور هذا المفهوم من كونه علمًا للفراسة (الرازي وأرسطو)، إلى كونه علمًا للاستدلال في كافة المجالات (نظرية البيان عند الجاحظ والسيميولوجيا عند دي سوسير)، إلى كونه منهجًا لتحليل النصوص ونقدها(السيميولوجيا عند بيردوسل وأمبرتوإيكو) .

المبحث الثاني: مدى تحقق السيميائية في ممارسة اللغة والاتصال، وكيف يتأسس بناء اللغو والاتصال . في واقعهما الإشاري والتداولي . على أكثر من ٦٥%منه على عناصر سيميائية؛ الأمر الذي جعلنا نقرر **قاعدتين** ، وهما :

. ليس ثمة اتصال فعَّال يغير لغة بليغة، ولا لغة بليغة بغير اتصال فعَّال .

. أن للإشارات وسيميائية اللفظ أهمية كبرى للمخاطِب في تعبيره عن المعنى، وإكماله له، وتوضيحه وتجسيده وتمثيله إياه؛ وكذلك للمخاطَب في فهم الخطاب ومقاصد المخاطِب، فيزول عنده لبس العبارة وغموضها وكذبها وتوريثها .

المبحث الثالث: دراسة العناصر السيميائية في الحديث النبوي، ومدى اعتماد الرسول ρ في اتصاله وأحاديثه على سيمائية اللفظ والإشارة، ومدى أهمية هذه السيميائية لدى شرّاح الحديث والفقهاء وعلماء الأصول ، سواء في فهم الحديث وشرحه، أو في استنباط أحكامه، أو في اعتماده مناطًا للاستدلال .